قالب سكر

رواية

مختار ، هند .
قالب سكر/ هند مختار ـــ ط2. ـــ القاهرة :
الدار المصرية اللبنانية ، 2010.
96 ص ؛ 21 سم
تدمك : 2 ـــ 616 ـــ 427 ـــ 977 ـــ 978
1 ـــ القصص العربية .
أ ـــ العنوان 813
رقم الإيداع : 14841 / 2010

©

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ـــ ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : شعبان 1431 هـ ـ يوليو 2010 م
الطبعة الثانية : صفر 1432 هـ ـ ديسمبر 2010 م
تصميم الغلاف الفنانة : هنادي سليط

قالب سكر

رواية

محمد مختار

الدار المصرية اللبنانية

إهداء

إلى الاستثناء

نون النسوة في كل مكان

بسم الله الرحمن الرحيم

ينتمي الكلام إلى الذهب، والصمت إلى الفضة..

السكوت فضيلة، والبوح خطيئة...

ولكن تكلم حتى أراك، ألمسك، أحسك، حتى لا أنساك..

أغراني الصمت بالخطيئة فتكلمت...

***

أنا مكتئبة لأن أمجد، الرجل الوحيد الذي أحببته، تركني بكل بساطة، نعم تركني بعدما أنفقت من عمري ثلاثة أعوام أحبه خلالها.

تركني من أجلها، من أجل فاطمة، تلك الفتاة التي طالما حدثني عنها، وكنت أراها من خلال عينيه على أنها بصل. وهل تخشى من هي مثلي من بصلة؟!

بعد أن تزوجها جلست أفكر فيها محاولة أن أكرهها لكني لم أعرف، وجدت نفسي أحترمها وأحييها، فهي لم تكن أبدًا بصلة، بل كانت رغيفًا من الخبز وكنت أنا قطعة جاتوه قد تشتهي الجاتوه وقد تنظر إليه بتلمُّظ ولكن يمكنك الاستغناء عنه، أما الخبز فلا، حتى لو كان(أسود وناشف ومليان ردة) شكرًا لك يا فاطمة، علمتِني كيف أكون خبزًا لا قطعة جاتوه .

***

اليوم أول أيام إجازتي السنوية، الجميع يأخذون إجازتهم في الصيف، أما أنا فآخذها في الشتاء.

أحب هذا الفصل بسمائه الرمادية ،وأمطاره، فأنا كائن شتوي قدر له أن يوجد في مناخ شبه قاري، البرد فيه ضيف عزيز، ما إن يأتي وتعتاده وتأنس به حتى يكون قد استأذن في الرحيل.

الساعة الآن السابعة صباحًا، ميعاد استيقاظي المعتاد كل يوم، أصحو بأعجوبة، وفي حالة مزاجية سيئة، أما اليوم فقد أفقت من نومي بسهولة أحلم بها في الأيام العادية ولكن حالتي المزاجية لم تتحسن.

أكلّ هذا بسبب أمجد وقصتي معه؟ لم أكن يومًا من أولئك النسوة اللاتي ما إن يفقدن الحبيب حتى يفقدن الدنيا بأسرها، ولكن يبدو أنه جعلني منهن.

سوف أضع الوسادة فوق رأسي وأشد الغطاء جيدًا حول جسدي، وأنظر إلى الساعة في شماتة، فهي لن تجبرني على القيام من النوم مفزوعة كي لا أتأخر على عملي، وحينما أفعل ذلك سوف أجعل دموعي تنساب دون أن يراها أحد ولا حتى أنا.

***

ذهبت أمي لتزور أختي الصغرى وهي محملة بأشياء كثيرة، فاليوم يوافق إحدى المناسبات الدينية ، والتي تعتبرها أمي والجميع موسمًا،

سألتني أن أذهب معها لكني رفضت متعللة بأني أريد أن أنام وأرتاح من عناء المواصلات.

والدي أيضا كان في عمله، وأخي الصغير في جامعته، وبقيت في المنزل وحدي.

أعددت لنفسي إفطارًا دسمًا بعدما أخذت حمامًا ساخنًا، وقررت أن أجلس بجوار الشرفة أراقب السماء وأتناول إفطاري كما يفعل أبطال السينما.

أمسكت بالملعقة لأضع السكر في كوب قهوتي الفورية ،وتذكرت أني كنت دائما ما أشربها سادة، وأن أمجد هو من كان يحلّيها لي.

شعرت بالمرارة في فمي، ولكني أرجعتها لطعم القهوة التي لم أكن قد شربتها بعد.

أنهيت قهوتي وإفطاري، كانت السماء ملبدة بالغيوم استعدادًا لسقوط المطر، طوال عمري أتمنى أن أقف عارية تحت تلك القطرات!

أمنية بلهاء لن تتحقق إلا تحت الدش في الحمام.

الساعة الآن الثانية عشرة وقد وقعت في نفس الورطة التي كنت أقع فيها وأنا طفلة.

كنت أصر على أن أتغيب عن المدرسة في يوم ما؛ حتى أنام ولو ساعة واحدة زائدة، وأكون فرحة جدًّا حينما تقبل أمي بذلك، وعندما

كنت أصحو من نومي أجد نفسي لا أفعل شيئا، أمي مشغولة عني بعملها المنزلي والشارع خال من الأصدقاء، وكل شيء من حولي ساكن تمامًا فأشعر بالملل وأندم على عدم ذهابي إلى المدرسة.

اليوم أنا في نفس الورطة، ياليتني كنت في عملي وسط أوراقي بين زملائي الأوغاد ،ولكن خمسة عشر يومًا أنا في حاجة إليها لكي أنسى أمجد.

***

ذهبت إلى فراشي محاولة أن أغفو قليلًا فأنا في إجازة ،ولا أحد بالمنزل. لم يغمض لي جفن بل ظللت متيقظة تماما وجدت بجواري الراديو، حركت المؤشر هنا وهناك عليِّ ألتقط أغنية ما، وجدت وردة تغني (قد العيون السود أحبك) اللعنة على الإذاعة والقائمين عليها، يتآمرون ضدي، فهل يعلمون أنها كانت أغنيتي المفضلة التي كنت أغنيها لأمجد؟ أخرست الصوت وتركت الفراش، ذهبت إلى حيث التلفزيون والدش، بحثت في المحطات المختلفة لعلي أجد شيئًا مسليًا فوجدت قصيدة (ارجع إليّ) أطفأت التلفزيون قبل أن أصاب بارتفاع في ضغط الدم .

دخلت المطبخ لأعد لنفسي كوبًا من شاي الظهيرة وأدخن سيجارة، ذلك النشاط السري في المنزل، والذي أمارسه منذ أيام الجامعة ووجدتها فرصة أن أقوم به بدلًا من مشاركة العفاريت لي.

وأنا أضع السكر في الكوب تذكرته، كلما رأيت السكر أتذكر أمجد فهو الذي علمني أن أضعه في المشروبات.

وقفت بالملعقة في المنتصف حائرة هل أضعها في الكوب أم أضعها في العلبة مرة أخرى، دق جرس المحمول فوضعتها في الكوب لأرد.

كانت صديقتي نور، دعتني لأن أجلس معها بما أني في إجازة و في المنزل بمفردي، قلت: ولم لا؟

ذهبت إلى المطبخ وصببت الماء في الكوب واكتشفت أني لم أضع الشاي فقط السكر!

علمني أمجد أن أصب الماء الساخن على الشاي فهذا أفضل من أن أضعه على الماء لأن هذا يفقده نكهته المميزة؛ لذا وضعت كيسا بدلا من الشاي الخرز!

السماء رمادية جدًّا لذلك سوف أرتدي فستاني الصوفي الأزرق وأضع على شفتي لونًا صارخًا وأرتدي حذائي ذا الرقبة العالية ففستاني قصير وتلك هي الموضة.

ألواني تتماشى تمامًا مع الشتاء ،جلست قليلًا قبل أن أنزل، أشرب الشاي ببطء قبل أن يبرد وأدخن معه سيجارتي ثم خرجت إلى حيث صديقتي .

أنا في إجازة لذا سوف أركب تاكسي بدلًا من الميكروباص.

ذهبت إلى نور في محل لعب الأطفال الذي تمتلكه في تلك المنطقة الراقية والتي تعتبر فيها لعب الأطفال من الضروريات .

كانت صديقتي يبدو عليها الحزن الشديد وقد استشفَفْتُ ذلك الحزن في صوتها حينما كلمتني على المحمول.

سألتها عن سبب حزنها فأخبرتني أن زوجها قد نال ترقية ونقل للعمل في أسوان، وأنه لن يستطيع أن يأخذها معه قبل ثلاثة أشهر على الأقل، ومن المحتمل ألا يأخذها معه مطلقًا، وفي تلك الحالة سوف تراه أسبوعًا كل واحد وعشرين يومًا.

فقلت لها إن هذا النقل جاء في ميعاده تماما ، فلقد تفاقمت بينهما المشاكل في الفترة الأخيرة.

قالت لي إن وجوده مع الخلافات أفضل من ابتعاده عنها فهي تحبه جدًّا! أعلم ذلك جيدًا فلقد سمت بناتها الثلاث مريم ومنة وملك على أول حرف من اسمه، مهاب.

تعرفت على نور في الجامعة، كنت في كلية وهي في كلية أخرى ولكن جمعتنا الكافيتريا ولم نفترق من يومها.

أحبت هي مهاب وأحبها جدًّا وتزوجا، أكملت أنا دراستي حتى حصلت على الدكتوراه فلم يكن في حياتي أيّ رجل حتى قابلت أمجد.

لفت نظري على أحد الرفوف دبدوب كبير الحجم لونه أبيض يحمل في يديه قلبا لونه أحمر كتب عليه أحبك بالإنجليزية، طلبت من نور أن أشتريه، وكعادتها أعطته لي بدون مقابل، رفضت أن تقوم بلفه لي في ورق هدايا.

قالت لي: مش هاينسيكي أمجد غير راجل تاني، لايفل الحديد إلا الحديد.

حضنت دميتي بشدة وحين خرجت من المحل الدافئ لفحني هواء الشتاء البارد.

***

حينما عدت إلى المنزل كانت أمي قد عادت من زيارتها لأختي، شممت رائحة التقلية العجيبة، وتذكرت أن اليوم الموسم؛ لذلك لجأت أمي إلى الملوخية المجمدة فمعظم المناسبات الدينية أصبحت في الشتاء، ولا توجد ملوخية خضراء.

أكيد توجد على المائدة العتيقة بطة خرافية الحجم و الأرز الأبيض الذي تبرع أمي في طهوه لدرجة أني فكرت في تسجيل طريقة طهوه في سجلات براءات الاختراع.

سألتني أين كنت فقلت لها عند نور. فهزت رأسها أن هذا ما توقعته خاصة أن يدي كان فيها الدبدوب.

بدلت ملابسي وذهبت حيث الغداء وباقي العائلة، أبي وأمي وأخي الصغير.

ملأت لي أمي طبقي بالملوخية وأعطتني ورك البطة أكثر أجزائها قربًا من قلبي، أمسكت بالخبز لأقطع منه لقمة آكل بها الملوخية فتذكرت أمجد وفاطمة فمددت يدي للملعقة أرشفها بها فلم أستسغها فأنا أحبها بالخبز، هل حياتك بلا طعم من غير فاطمة يا أمجد؟ عليك اللعنة هل دخلت حياتي لدرجة أني وجدتك في الملوخية؟

لا يوجد شيء قادر على إفساد استمتاعي بالملوخية، سوف آكلها بالخبز، أنا التي شبهت فاطمة بالخبز فما ذنب معدتي؟

بعد انتهاء الطعام وطقوس الشاي وخلافه قررت أن أغسل الصحون فأنا في إجازة.

استغرقت في تنظيف الأواني وأدوات المائدة حتى أصبحت الساعة الحادية عشرة، بعد أن جففت يدي وخرجت من المطبخ لمحت أبي وأمي جالسين بجوار الشرفة وقد أشعلا المدفأة وصوت أم كلثوم يصدح أن: هلت ليالي القمر.

أمي ليست مدخنة ،ولكن كلما أراد أبي أن يدللها يعطيها سيجارة تسعل بعدها قليلا ثم تمد يدها وتأخذ من العلبة واحده أخرى ودائما قبل أن تنهي أم كلثوم وصلتها الغنائية يكون أبي وأمي قد بدءا وصلتهما.

أخي أيضا له وصلة تليفونية، فقد وقع في الحب حديثا، ويعاني أعراضه، وهي كالجنون يراها الجميع ولا يراها صاحبها.

دخلت إلى الفراش بعدما وضعت المحمول على وضع صامت، وفصلت وصلة التليفون التي في غرفتي، أضأت الأباجورة لأقرأ قليلا، لكن البرد قد جمد يدي القابضة على الكتاب، أطفأت النور وشددت الغطاء على جسدي شعرت بالغيرة، فأمجد بجوارها يمنحها الدفء والحب والحنان وأنا وحيدة أحضن دبدوبا أخذته من محل لعب أطفال.

***

اليوم ثاني أيام إجازتي، استيقظت متأخرة فالساعة كانت الحادية عشرة، لم أعرف كيف نمت كل هذا الوقت.

حينما خرجت من غرفتي أخذت أنادي أمي فلم أجدها في المنزل، رجحت أنها ذهبت إلى السوق، تشكو أمي دائما من أنها جالسة في المنزل ولاتخرج أبدًا- ولكنها إما في السوق تشتري لوازم المنزل، وهي ترفض دائما أن يساعدها أحد في ذلك، فحجتها أننا لا نستطيع أن نأتي بشيء جيد في حين أعلم أنها تريد أن تخرج من المنزل كل يوم ـ أو هي جالسة عند إحدى الجارات تتحدثان في أدق شئونهما الشخصية، وتقرآن الفنجان معًا لمعرفة الغيب...

نظرت في المرآة بعدما غسلت وجهي فوجدته شاحبًا جدًّا فأرجعت ذلك لشرب القهوة في الصباح، ذهبت إلى المطبخ وصببت لنفسي كوبًا كبيرًا من اللبن وجلست أمام التلفزيون أشاهد فيلما أمريكيًّا عبقريا من أفلام الحركة.

أحب السينما الأمريكية، خاصة أفلام الإثارة والعنف؛ فالبطل يستطيع أن يقتل من يشاء من خصومه، ويطهر العالم من الخونة، ولا يحاسبه أحد..

جاءت أمي في منتصف الفيلم، وغابت في المطبخ لإعداد الطعام، وحينما أقبلت عليّ حاملة كوبي الشاي اللذين تفوح منهما رائحة النعناع كان الفيلم موشكا على النهاية.

بعدما انتهى الشاي والفيلم أُذِّنَ لصلاة العصر، فقامت أمي لتتوضأ وتصلي. صديقتي الشيخة سهى قالت لي إن كل المصائب التي مررت بها في علاقتي بأمجد نتيجة لعدم صلاتي..

- قمت من مجلسي، ونظرت من زجاج الشرفة إلى السماء الرمادية فوجدت فيها ثقبا مضيئا بين السحاب تخرج منه أشعة الشمس.. لماذا يا رب تخلقنا ضعافا ثم تحاسبنا على هذا الضعف؟

بحثت عن أمي فوجدتها في الحمام تتوضأ تاركة الباب مفتوحا كعادتها فلا أحد في المنزل سوانا.

توجهت إليها بسؤالي السابق، فنظرت لي نظرة مملوءة بالدهشة والحنان وكأنها تقول متى تكبرين يا طفلتي المرأة!

أجابتني: على قدر التعب يكون الجزاء فهمت؟

- لا لم أفهم فأنا تعبت جدا في علاقتي بأمجد و لم أكسب حبه فلقد كنت على استعداد للتنازل عن كل أحلامي وقناعاتي لكي أظفر بقلبه، حتى التدخين كنت أتوقف عنه قبل لقائه بثلاثة أيام لأنه كان يكره رائحة الدخان في فمي وهو يقبلني.

- حينما علمت سهى أني وأمجد كنا نقبّل بعضنا البعض ارتعدت غضبا وقالت لي إن الله سوف يشويني في نار جهنم..

- لماذا خُلِقَت الشفاه، أليس للقبل؟لم أشعر بالذنب أو تأنيب الضمير وأنا أفعل ذلك.

- أما صديقتي نور فقد ضحكت وقالت لي: البوس ده المقدمة، لو عرفتي الباقي هاتعرفي إن اللي بتعملوه ده لعب عيال.

- لم تفهمني سهى ولا نور، فأنا كنت أبحث عن لغة أخرى ليست كلغة البشر لأقول لأمجد: (أحبك).. لم يكن الهدف هو(البعبع) الجنس ولكن الحب.. كلتاهما غبيتان.. ولكن هل كنت غبية مثلهما؟

***

توضأت وقررت أن أصلي، صليت وأنا شاردة الذهن وحالتي المزاحية سيئة، بعد انتهائي من الصلاة ارتديت ملابسي وقلت لأمي إني ذاهبة لصديقتي وردة فهي تسكن جواري وكالعادة سألتها إن كانت تريد شيئا؟ فقالت: لا.

في الحقيقة لم أكن ذاهبة لصديقتي بل للصيدلية القريبة من المنزل، فالفتاة التي تعمل بها علاقتي بها طيبة؛ لذلك طلبت منها أقراصا مضادة للاكتئاب وأنا أعلم أنها لن ترفض مع أني لا أملك روشتة..

قلت لها إني أعاني مشكلات في العمل ،نظرت إليّ بتهكم ، ليس العمل بل هو أمجد أو هكذا شعرت أنا..

عندي رغبة في أن أقف في ميدان التحرير وأصرخ بأعلى صوتي، وأنا على ثقة أن الصراخ كالتصفيق كلاهما ينتقلان للناس بالعدوى فما إن أصرخ حتى يصرخ الجميع معي كل من وجيعته..

ابتعت زجاجة مياه معدنية وابتلعت القرص في الشارع وأنا على علم أنه ليس كما يحدث في الأفلام الرديئة ما إن أتناول القرص حتى أشعر بالنشوة، حتى الحقن يحتاج الدم فترة لينقلها إلى باقي الجسم.

ذهبت لصديقتي وردة، سألتني عن أحوالي وحينما رأت في يدي زجاجة المياه المعدنية تعجبت، فأخبرتها عن الحبوب فانزعجت فعلا، ولكني أخبرتها أن الإنسان حينما يشعر بالصداع يتناول دواء للصداع

ونفس الشيء بالنسبة لآلام المعدة فلماذا لا نداوي الروح ،أليست جزءا من الجسم.

تركتها ورجعت لمنزلي بعد حوالي ساعتين من الثرثرة هنا وهناك، تناولت غدائي بشهية وقد شعرت أن مفعول الحبة قد بدأ، كنت أريد النوم ولكن قررت أن أذهب للسينما، رفضت أمي الخروج معي وكذلك أخي الصغير متعللا بالمذاكرة في حين أعرف أنه على ميعاد ليكلم فتاته في الهاتف -احذر يا أخي فالحب يفقدنا الاستمتاع بالحياة أحيانا- ذهبت للسينما بمفردي وكان فيلما أجنبيا، جميع رواد السينما كانوا فتى بصحبته فتاة أنا فقط التي كانت بمفردها.. كدت أبكي لكن الفيلم قد بدأ فاندمجت مع أحداثه.

***

- لم أذهب إلى السينما مع أمجد ولا مرة ، كنت أفضل أن أجلس معه في منزله عاريين كل منا في أحضان الآخر.

يكتفي هو بالنظر إلى عيني وأكتفي أنا بسماع دقات قلبه فلقد كان الكلام بيننا قليلا..

كان أمجد رجلا وسيما حقا بصدره العريض وعينيه القاتمتين وقامته المفرودة المتناسقة، لم يكن طويلا حقا كما كنت أحلم بفارس أحلامي فقد محا من ذهني كل الأحلام وأصبح هو الحلم والحقيقة..

أكثر ما كنت أحبه فيه أصابع يده الطويلة النحيلة كنت أقبلها دون أن أشبع، نعم كنت أقبل يده، أقولها دونما حرج، وما المانع أن أقبل يد حبيبي وما الفارق بين الشفاه واليد؟

كنت أتمنى أن أقبل قدميه أيضا كنت على استعداد لفعل ذلك لكنه كان دائم الرفض.. كم كنت أحبك يا أمجد.

الساعة تجاوزت العاشرة مساءً ولم أكن قد شربت قهوة أو شايا حتى الآن؛ لذلك سوف أجلس في هذا المقهى القريب لأشرب القهوة..

وأنا في المقهى دق جرس المحمول فوجدت صديقي سيد هو المتصل ليطمئن عليّ..

سألت سيد ذات يوم: سموك سيد ليه يا سيد ماكانش فيه اسم أحسن من كده؟

ضحك يومها بشدة، ونظر في عيني نظرة طويلة أعرفها جيدا من كثرة ما نظرت بها لأمجد قائلًا: مشكلتك إنك عيّلة .

لا يستحق هو اسم سيد فهو وسيم كآلهة الأوليمب، طوله الفارع جسده الرياضي شعره الكستنائي، عيناه الزرقاوان لا يستحق ذلك ولكن لن أحبه..

لم أتخيل يوما نفسي أحب رجلا اسمه عادي، فأمجد كان كأبطال السينما والروايات، اسمه أمجد يسري فهل لو كان اسمه سيد كنت سأحبه؟لا أدري..

عدت إلى منزلي بعدما شربت قهوتي الفورية وكنت نسيت ووضعت فيها ملعقة سكر..

قاربت الساعة منتصف الليل، والدي ووالدتي في وصلتهما و أخي في وصلته التليفونية.

بدلت ملابسي ودخلت الفراش وأخرجت صورة أمجد من حافظة نقودي قبلتها وعاتبتها وقلت يا رب ساعدني -لا أعرف كيف وأنا كما تقول سهى لا أصلي- أنت أعلم مني بضعفي يا رب، وضعت الصورة مكانها ووضعت الوسادة فوق رأسي وأحكمت الغطاء حول جسدي.. ظللت أبكي حتى هدني التعب.

***

وجدت يدا حنونة تداعب خدي وأنا نائمة.. لأول وهلة اعتقدت أنها يد أمجد، ولكنها كانت يد ابن أختي الصغرى، جاء ليوقظني ويعلن عن وجوده، أخذته في حضني وقبلته فأنا أحبه فعلا و أشعر أنه ابني ..

ما أرقك يا ميدو، ياليت أختي تحسن تربيتك كي تحسن للمرأة.. وتعلمك ألا تجعل النساء دمى حيّة تمارس عليها طقوس الغدر.. تعلمك ألا تخون امرأة..

قال لي ميدو بصوته الطفولي: قومي يا خالتو ..

قمت من فوري وذهبت إلى حيث أمي وأختي، وجدت الأخيرة تشكو لأمي من زوجها وبجوارها حقيبة ملابسها وحقيبة ملابس الصغير،كانت أمي تهدد وتتوعد وأختي تبكي وتبكي..

بعد قليل علمت أن سبب الخلاف بينهما كان تافها حول رغبة زوج أختي في أن يأكل (محشي) وهي قد طلبت منه أن يرجئ هذا الطلب إلى الغد ،لم يمانع ولكنه قال لها إنه سوف يذهب إلى أمه لكي يأكله هناك فهو يشتهيه جدا..

سألته أختي مازحة (بتتوحم)؟ شعر بالإهانة من الدعابة فصرخ فيها غاضبا، ردت عليه بجفاء وقامت بينهما مشاجرة معتادة بين الأزواج والتي تنتهي بأنهما أخطآ حينما تزوج كل منهما لآخر..

(هل أخطأت أنت أيضا يا أمجد باختيارك لفاطمة؟)

وانتهت المشاجرة بأخذها ابنها وحقيبة ملابسها والذهاب إلى (بيت أبوها).

***

أماني أختي دائما ما أقول عنها إنها فضيحة تمشي على الأرض، صاحبة حسن باهر غير طبيعي تعرف كيف تستثمره.

هي أخت رائعة يعتمد عليها كشقيقة على الرغم من أنها الأصغر بعامين إلا أنها كانت تدافع عني وأنا في المدرسة، حتى أنها في إحدى

المشاجرات ونحن أطفال (بطحت) ابن الجيران في رأسه ببلية كبيرة الحجم لأنه قال لي: يا حمارة .

كصديقة هي غير مؤتمنة على سرّ، خاصة لو كان هذا السر يتعلق برجل وامرأة.

أذكر مرة ونحن على أعتاب الأنوثة في الثانوي أنني أعجبت بأحد الطلبة في مدرسة البنين المجاورة لنا وأعجب بي هو الآخر.. وحكيت لها، طار صوابها فكيف ينظر أي رجل في العالم لغيرها فكان أن أخبرت أبي وأمي وكان مصيري العلقة الشهيرة التي نالتها كل فتاة شرقية لأنها حاولت أن تفعل كالرجال وتحب..

من هذا اليوم أغلقت في وجه جميع من في أسرتي أبواب قلبي، كنت فقط متلقية للآخرين..

نتيجة تصرفات أختي تلك كانت محل ثقة جميع من في المنزل، وكان معروفا أنها شديدة الالتزام، لكن أنا أعلم جيدا أنها ليست كذلك، ففي أيام الجامعة كانت تذهب مع أصدقائها إلى الرحلات دون أن تخبر أحدًا، وتعود في مواعيدها الطبيعية فلا يشك فيها والدي، كانت ترتدي ملابس فاضحة جدًّا، أطول رداء فيها فوق الركبة بعشرات السنتيمترات، هذا بخلاف الحمالات الرفيعة والملابس الخفيفة وغير ذلك، وكانت تجيد إخفاء تلك الأشياء حتى عن أمي..

كانت تستغل عينيها في التأثير على الرجال فإذا فشلت لجأت إلى صدرها، والذي كان ينجح في مهامه جيدًا، حتى المحاضرات التي كانت لا تحضرها وعلى وشك أن تحرم من دخول الامتحان في موادها كان لها أساليبها في شطب ذلك الغياب ودخول الامتحان..

في البداية كنت أكره تصرفاتها تلك، ثم اعتدت عليها وفي النهاية عذرتها، فنتيجة لجمالها الزائد زرع فيها الجميع أنها خلقت للزواج، وللرجال، ومن هي مثلها ليست في حاجة للتعليم والشهادات، ومع ذلك كانت تُوبَّخ إذا رسبت أو أهملت في دراستها..

كانت أختي تعاني ازدواجية الفكر، فمارست ازدواجية الحياة حتى قابلت عمرو زوجها ووجدت فيه ما كانت تبحث عنه، فهو رجل طيب القلب متفتح العقل كان يحبها في صمت.

كانت أختي نتيجة لسيرتها في الحي قد تأخر بها سن الزواج عما هو متوقع فلقد بلغت الخامسة والعشرين ولم تتزوج ،كيف يحدث هذا مع ذات الفتنة والحسن؟

لم تقلق أمي عليّ مثلما قلقت على أماني، فأنا صاحبة جمال أيضا ولكني كنت أتفنن في إخفائه عن الجميع، بالإضافة إلى أني ألتفت للعلم، فأخذ الجميع عني انطباعا أني مسترجلة ولا أنفع في الحب أو الزواج..

كان جميع الناس يهنئون والديَّ على حسن تربيتهما لنا خاصة أماني، وهم يضحكون على أبي وأمي في سرهم، من منطلق (مالناش دعوة)، و(عيلة ربنا يهديها)..

الوحيد الذي تجرأ على الزواج من أختي هو عمرو بالرغم مما كان يعرفه عنها من استهتار وتهتك وسيرة غير حسنة..

دهش الجميع كيف تقبل أماني الزواج من عمرو؟ فهو مشهور بينهم بأنه (واد أهبل) فالطيبة مقرونة عند الجميع بالسذاجة..

أول مطالبه من أختي كانت أن تفعل ما تشاء في العلن وبمعرفته، فإذا أرادت أن ترتدي ملابس مكشوفة فهو لا يمانع بل كان يبتاع لها بعض القطع منها، لو كان لها أصدقاء من الرجال أن تتصل بهم في حضوره، بل إنه دعاهم للقيام برحلة وأن يحضر كل واحد منهم من يشاء معه وترك لأختي حرية تحديد المكان..

تصرفاته تلك كانت لا تجد صدى طيبا عند أبي وأمي ولا حتى عند والديه، ولكنها غيرت من أختي فعلا، فلم تعد تلجأ لأساليبها القديمة، فقد وجدت فيه من يقدرها لأشياء أخرى غير جمالها الذي لم ينس الإطراء عليه أيضا.

أصبحت أكثر احتشاما حتى لا يجرحه الآخرون، غربلت علاقاتها وأبقت فقط على من يستحق، لم تخبئ فتنتها ولكنها لم تعد تعتمد عليها..

وحينما أصبحت أمّا رأت في نفسها تاريخًا لهذا الطفل فلم يبق لها من الماضي شيء إلا عدم استطاعتها كتمان سرٍّ ودُعَاباتها الحادة أحيانا والتي كانت السبب في شجارهما معا.

***

تنفست الصعداء حينما تزوجت أماني، فقد تركت لي الغرفة أفعل بها ما أشاء، وأصبح لي الحق في أن أوقد الأباجورة في الليل لكي أقرأ باستمتاع دون أن تشتكي أختي من الضوء.

تضايقت جدًّا من أجلها وتضايقت أكثر لنفسي، فلن أستطيع أن أبكي على فراق أمجد كما أحب؛ لأنها سوف تبيت معي في الغرفة، عليَّ أن أنام أنا على المرتبة الإضافية على الأرض وهي على الفراش مع ميدو..

حمدا لله أنني في إجازة فإذا بكى ميدو في الليل وأقلقني فلن يؤثر هذا على استيقاظي في الصباح.

دق جرس التليفون ووجدت سهى تبكي هي الأخرى، فسألتها عن السبب فأخبرتني أن والدها يريد شراء صالون جهازها من دمياط وأن خطيبها جلال يصرّ على أن يشتريه من أحد المزادات الفخمة، وأن الزيجة على وشك أن تنتهي..

أخبرتها ألا تقلق، واتصلت بجلال وطلبت منه ألا يعقد الأمور، ويتساهل مع والدها فهو رجل (دقة قديمة)، وأنه حينما يتزوجان

فليفعل ما يشاء حتى لو اشترى صالونا مصنوعا من أخشاب أشجار الجنة..

اقتنع جلال برأيي وتنازل؛ فقد كان يحب سهى جدًّا ، هل كنت تتنازل عن آرائك يا أمجد كي تفوز بفاطمة؟

يا له من يوم مميز جدا، شجار بين أختي وزوجها وبين خطيب صديقتي ووالدها، والبقية تأتي..

ما هي إلا دقائق حتى وجدت أختي قد أعدت الإفطار لي ولها، ومعه كوب القهوة الفورية محلّى بقطعة سكر واحدة، فلم تكن على علم بقراري بالعودة لشربها سادة ..

دق جرس التليفون للمرة الثانية وكانت المتحدثة صديقتي وردة تشتكي لي أن حسين لم يعد يلتفت لها كما كان في السابق، وأنها مكتئبة..

أماني أختي مكتئبة، وسهى مكتئبة ووردة مكتئبة، وجميعهن لجأن لي أنا المكتئبة جدًّا، يبدو أننا سوف نشهر جمعية اسمها نساء مكتئبات والسبب طبعا الرجل..

***

- ملأت البانيو بالماء شديد السخونة، ووضعت فيه كمية وفيرة من شامبو الحمام، وجلست فيه أستمتع بالماء الساخن وأشعر بالسخونة

كأنها جسد أمجد يحتضنني في أمسيات الشتاء الباردة ومن جسده أمتلئ دفئا..

شاهدت يوما في فيلم أجنبي لا أذكر اسمه البطل و قد صنع خصيصا من أجل حبيبته بانيو يتسع لفردين.. كم أحبَّ هذا الرجل البطلة في الفيلم وكم أحببتك أنا في الواقع.

في إحدى جلساتنا النسائية سألتني وردة عن أحلى حاجة في الحب؟

فأجبت بتلقائية البوس.

ضحكت سهى بشدة قائلة على غير عادتها: بس حاسبي علشان بينقض الوضوء.

نظرت لنا نور بجدية قائلة أنتم شوية عيال .

***

هل امتهنت جسدي ؟

اتهمتني سهى بذلك لأنني سمحت لرجل ليس بزوجي أن يلمسني، ويستمتع بي..

لم تلاحظ سهى أن أجسادنا الشرقية الشريفة انتهكت من يوم الميلاد..

في عين كسيرة لأب لأن الله لم يهبه الذكر..

من حسرة في قلب أم تعلم جيدا الأهوال التي سوف تقاسيها طفلتها..

كتب على أجسادنا أن تهان من نظرة شبقة في عين محروم.. من حسد عجوز ولّى عنها الشباب.. من رجل يعتقد أن جميع النساء له ليسعدوه..

من امرأة تنظر للتفاصيل لتفاضل بينها وبين الأخرى..

لا يا سهى لم أمتهن جسدي لقد أعطيته لمن أحببته لمن يستحقه: أنا أيضا استمتعت بجسده..

لم أنتظر المشتري الذي يعاين السلعة ليقدر ثمنها، وجودتها على حسب تاريخ الميلاد.

أنا عكسك يا سهى لا أدعي الفضيلة، وأشتهي الخطيئة، أستعيذ من الشيطان وأبحث عنه..

لست مثلك، لم أسمح لأحد أن يعتبرني مشروع خطيئة ينبغي الحفاظ عليها من السقوط، لقد عشت حرة وسأظل كذلك، وإذا كنت في نظرك قد امتهنت جسدي فقد امتهن الآخرون عقلك...

كانت كلماتي لسهى في ذلك اليوم قاسية جدا فما قالته أوجعني فقررت أن أؤلمها..

لامتني نور طويلا على كلماتي، وردة كذلك اندهشت من قسوتي الشديدة معها..

أنا كذلك وبخت نفسي بشدة على ما فعلته معها، لم أراع ظروفها الخاصة، فسهى لديها أربع شقيقات توفيت والدتهن أثناء ولادة الصغرى شيرين في محاولة عقيمة منها أن تنجب للزوج السند والعزوة حارس الدنيا والدين.. الولد.

تركت هذه الأم ليلى الكبرى في العاشرة، وهدى في التاسعة، ورانيا في السابعة وسهى كانت في الثالثة..

لم تتمتع سهى بحنان الأم ولم تجد حتى تعويضا عنه في حنان الأب، فهو كان مشغولا بالكارثة التي حلت به، ليست طبعا وفاة الزوجة أو تربية الفتيات بل إنهن كن خمس فتيات... خمس خطايا يجب المحافظة عليهنّ ومنهن..

الشارع من المحرمات، فكر ألا يدخلهن المدرسة، ولكنه خشي من كلام الناس واتهامه بالجهل فكانت مدارس الراهبات، ممنوع الصديقات فالفتيات يفسدن بعضهن البعض، زيارة الأقارب مكروهة كراهية التحريم، التلفزيون مفسدة، حتى الكتب والمجلات تسهم في تفتيح عيونهن البريئة حتى جاءت لحظة الحقيقة..

من كثرة ما روت لي سهى هذا المشهد أشعر أني شاهدته وكثيرا ما أغمض عيني حتى لا أراه..

كان السائل أحمر دافئا شديد السخونة يتدفق كالنافورة ولا يوجد شيء قادر على حجبه..

العينان مرتعشتان والجسد ثقيل لا تقوى على حمله ،خشيت من الصراخ حتى لا يصب عليها والدها الغضب الذي لا تعلم من أين يأتي به..

صراخ أختيها هدى ورانيا أخافها، كانت تريد منهما أن تخرسا حتى لا يعلم الأب ..

فجأة كُسر باب الشقة ودخل الجيران، شهقاتهم وولولتهم، مجيء سيارة الإسعاف والجميع يحمل ليلى الأخت الكبرى والدماء تتساقط منها أفزعها المشهد كانت في السابعة وتريد أن تعلم أن تفهم ولكن لم يلتفت أحد إليها حتى ليهدئ من روعها، انشغل الجميع عنها بالصارخات، وبالطفلة الصغرى شيرين وصمتها أنساهم إياها..

لجأت إلى الفراش تختبئ تحته كما كانت تفعل دائما هربا من قسوة الأب، وفي ظلامه شعرت بالأمن ، فرغ المنزل من الجميع وهدها الخوف من الأب والتعب فنامت..

***

انتحرت ليلى الأخت الكبرى وهي لا تعرف ما هو الانتحار ..

الطفلة صاحبة الأربعة عشرة عاما قتلت نفسها، وهي لا تعي ما هو الموت..

اقتبست الفكرة من فيلم شاهدته خلسة بعيدا عن الأب، حينما اكتشفت البطلة الخيانة قطعت شرايينها في الحمام.. كان هذا الحل هو ما وجدته لمشكلتها..

في صباح يومها الأخير اكتشفت الدماء التي تخبرها بأنها أصبحت أنثى، ولكنها لم تفهم، فقط خافت وارتعبت .

تخبر من بمشكلتها؟ لا تعرف كيفية الوصول لأقربائها، وليس لها علاقة بالجيران، وإذا تجرأت وقالت للأب ألن يكون مصيرها الضرب والإهانة على هذا الذنب، مع أنها لا تعرف ما هو هذا الذنب ..

كانت المشكلة بسبب الدم، فأنهتها بالدم. استخدمت كما في الفيلم الكوب الفارغ الذي حطمته.. وفعلت كما شاهدت، من المؤكد أنها تألمت جدا، وشعرت أن جسدها تفرغ منه الروح تدريجيا حتى لم تعد تشعر بشيء..

***

استيقظت سهى الطفلة الصغيرة شاعرة بالجوع، فهي لم تأكل منذ الصباح، كان الهدوء والظلام يلفان المنزل..

خرجت من أسفل الفراش، مرعوبة وسمعت صوتا زاد من خوفها، تعثرت في الظلام في فردة حذاء كانت في يوم ما لليلى فسقطت

على الأرض صارخة من الرعب، فجأة سطع الضوء، ووجدت الأب يحملها ويحتضنها، ويبكي بكاء مرًّا ..

كان الصوت الذي أرعبها هو صوت نحيب الأب، وحينما وجدته يبكي التصقت به أكثر وشعرت لحظتها بالأمان معه، وهمست في أذنه أنها جائعة.

أطعمها بيده لأول مرة منذ وفاة والدتها، وبدل لها ملابسها وأخذها من المنزل حاملا إياها بين يديه، وتركها عند خالتها الباكية المتشحة بالسواد والتي كانت ترمقه بعينين ملؤهما الكراهية، وهما في الطريق سألته عن أختها فلم تجد منه إجابة إلا الدموع الغزيرة..

كان البكاء والسواد يحيطان بها من كل اتجاه، وأضيف إليهما شيء جديد هو الحنان الذي تذوقته لأول مرة ..

تغير والدها كثيرا بعد ذلك الحادث المؤلم، أشعره فقده للكبرى ليلى بأنه خائن، خان زوجته الراحلة، ولم يستطع أن يرعى لها ابنتها.. شعر بالفقد وكأن جزءا من جسده قد اقتطع منه أمام عينيه ولم يستطع أن يقاوم..

لقد كانت ليلى فدية لكل أخواتها، منحتهن من عذابها الرحمة، ومن آلامها الحنان..

تحول الأب من الخوف منهنّ إلى الخوف عليهن ، لم تتغير طريقة حياته الظاهرية فما زال الخروج بمواعيد سابقة، والمجيء بمواعيد صارمة

لا تقبل النقاش، والتليفون ممنوع إلا للضرورة ،وبعد العاشرة مساء الأبواب مغلقة، إلا أن حبه الذي لم يعد يخفيه عوضهن عما سبق..

حينما وعت سهى ما حدث، وعلمت أن الانتحار حرام أخذت تبحث في كتب الدين عن عذاب القبر و النار التي أعدت للكافرين..

في هذه الكتب الجنة والنار بثمن بخس..

رحمة الله تباع في الدكاكين وعلى الأرصفة ..

لم تكن لتستوعب أن ليلى كانت ضحية، وأنّ من يجب أن يعاقب هم الآخرون، وأن دماء تلك الطفلة معلقة في رقابهم إلى يوم يوعدون.. لم تقرأ في تلك الكتب عن (ما هي رحمة الله)، فقط قرأت عن (ما هو عذاب الله).

ليلى موءودة الجهل، والعار كيف تُسْأَلُ عن وأدها ..

لم يبق لها من تلك الفترة سوى أرديتها الثقيلة قاتمة اللون صيفا وشتاءً فقد كانت محجبة من قبل أن تعرف ما هو الحجاب، وحائرة ما بين الحلال والحرام..

تزوجت هدى بمعرفة الأب من ابن أحد أصدقائه، ورانيا من ابن خالتها، أما سهى فقد خطبت من معارف إحدى صديقاتها..

رأت صديقتها أنها الأنسب لجلال الخبير في النساء، فكان يعاني نتيجة علاقاته النسائية المتعددة، عقدة أنه لا توجد امرأة جديرة بالثقة، وجميعهن خائنات ..

ولكن حينما تعرّف على سهى ووجدها نقية شديدة البراءة، وخبرتها مستقاة من الخيال والتلفزيون سقط صريع هواها..

من المواقف التي ضحكنا منها كثيرا على سهى حينما قال لها أنها كالحمل الوديع تحتاج لمن يحميها من الذئاب وأنه سوف يقوم بتلك المهمة خير قيام.

فقالت له إنها رأت في التلفزيون أن الذئاب تخاف من الكلاب، غضب منها ولم تعلم حتى الآن السبب..

و على الرغم من أن والدها قد غيّـر محل سكنه بعد الحادث إلا أن صورة ليلى وهي جالسة على أحد المقاعد وفي أحضانها شيرين، وعلى إحدى ركبتيها تجلس سهى، وحولها رانيا وهدى، وجميعهن تفلت منهن ضحكة طفولية مازالت معلقة على أكبر جدران المنزل ..

***

حينما أقبل الليل كانت هناك مطارق تهوي فوق رأسي، فحينما جاء أبي من العمل أخذت أمي تحكي له ما حدث بين أختي وزوجها، وكيف أغضبها وأخذت أختي في البكاء وأمي في الحسرة عليها وعلى بختها، ولم تهدأ حتى قال أبي إنه سوف يحدثه في التليفون ليعرف منه حقيقة ما حدث، وكان وقت الغداء قد فات وأصبح غداؤنا عشاء أكلت وذهبت إلى فراشي الأرضي فارتميت عليه حتى الصباح دون أن أفكر في أمجد.. لكنه جاء لي في الحلم.

***

محفور ..

على وش القمر ..

رسمك؛

منقوش عليه..

اسمك؛

و في لحظه..

كان القدر

خطين و يتوازوا!!

طب ليه بتلعب لعبتك؟

دايرة مبتداها المنتهى.

منحوت..

على وش القمر

تفاصيل ..

حكاية حبنا..

ولد..

و

بنت..

عشق سماها،

دابت فى تنهيدة صدره.

و القدر....

خطين و يتوازوا.

الحكاية مش حكاية

قلب دق

ولا حواديت الحب القديمة،

الحكاية ..

عقل ..

يمارس طقوس العشق

قلب..

يترجم مشاعر،

و القدر مازال بيمارس نفس المهمة

خطين و يتوازوا.

- القصيدة لمنال فاروق

لا أعرف متى على وجه التحديد وقعت في غرامك يا أمجد..

هل حينما رأيتك لأول مرة وسط هؤلاء مشرقا، متألقا ..

أم حينما تلاقت عيوننا في حوار خرافي بلا حروف أو كلمات معروفة..

حوار قديم قدم الحب جديد كل مرة في شعورنا به..

نعم أحببتك يا أمجد كما لم تحب امرأة رجلا من قبل..

من أنت يا أمجد؟ وهل أنت فعلا ذلك الرجل الأسطوري، أم أنت كما قال الشاعر:

ولَقَدْ صَنَعْتُكِ مِنْ هَوَايَ وَمِنْ جُنُوني؟

حتى الآن لا أعلم من أنت يا أمجد، أتذكر الآن لقاءنا الأول كحبيبين، كان لقاء عجيبا تبادلنا فيه الأدوار، أنت في قمة الخجل، وأنا في قمة الجرأة اندهشت من نفسي ومنك، كيف تبادلنا الأدوار؟ ظل ذلك التساؤل يدور في رأسي إلى أن جاء يوم النهاية، يومها عرفت أن جرأتي كانت من حبي ،كلما زاد الحب سقطت الأقنعة، الحب كالخمر، تحل الخمر عقدة اللسان أما الحب فيحل عقدة الجسد يفك شفرته ..

أما أنت فلم تكن تحبني لكنك أحببت حبي لك ، هل أشفقت عليّ؟ وهل كنت في حال يستحق الشفقة ؟

حينما ألقت صديقتي منال قصيدتها (خطين ويتوازو) هل كانت تتنبأ بحكايتنا معا في أول لقاء يجمع بيننا ؟

عجيبة ذكرى ذلك اللقاء، بعدما انتهت منال من إلقاء قصائدها والتهبت أكف الحاضرين بالتصفيق ما بين متذوق، ومجامل، وآخر يخشى أن يظهر بمظهر الجاهل إذا لم يصفق بحرارة، تشابكت أعيننا بنظرة، ورفت البسمة على وجوهنا ومددت لي يدك قائلا :

منال دي حد جميل جدا، ورائعة جدا كل يوم بيزيد إعجابي بيها ، دي أول مرة تحضري فيها أمسية شعرية؟

رددت عليك وقتها (منال صاحبتي من زمان من أيام المدرسة، لأ مش أول مرة أحضر أمسية أو ندوة شعرية أنا صحافية في مجلة... وشغلي أصلا أغطي الحياة الأدبية والثقافية).

أنا أمجد يسري وحضرتك ؟

أبية عبد المجيد

مندهشا جدا قلت: أنت أبية عبد المجيد؟ أنا ماكنتش متوقعك كده خالص ده أنا معظم شغلك قريته، حضرتك تنفعي نموذج لتمثال إغريقي يتحدى بهاؤه الزمن.

ومن يومها شددتني من أذني بكلماتك الاستثنائية، وحضورك الاستثنائي، واختفائك الاستثنائي.

عرضت عليّ في هذا اليوم أن توصلني إلى منزلي خاصة بعدما شاهدت وحدتي فالكل ذهب لتهنئة منال، وخبرتي الصحافية جعلتني

غير مهتمة بالجلوس للنهاية فقبلت طلبك، فكثيرا ما عرض عليّ آخرون توصيلات بريئة وغير بريئة ودائما كنت أوافق، ودائما لم يحدث شيء ...

قلت لي يومها:

أنا عايز أعزمك على حاجة بس الوقت متأخر و.. كنت مرتبكا جدا فقلت لك بجرأة لم أعهدها في نفسي (لو عايز تقول إنك عايز تعزمني في بيتك ماعنديش مانع).

وارتكبت عن سبق الإصرار الحماقة الأولى في علاقتي بك... ذهبنا إلى منزلك وكانت الساعة قد تجاوزت التاسعة بقليل فتحت لي باب الشقة كأنك فتحت لي باب الجنة.. كان ينبعث منها رائحة هي مزيج منك ومن رائحة قادمة من ماض سحيق، وكانت الإضاءة خافتة مندهشة سألتك:

مدام مافيش حد في البيت سايب النور مولع على الفاضي ليه؟

ضاحكا أجبتني: هي جدتك قبل كده ماقالتلكيش إن النور المولع يطرد العفاريت؟

ضحكت أنا الأخرى قائلة: بتخاف من العفاريت؟

- بخاف من أي حاجة مقدرش أعرف أسيطر عليها.

- ديكتاتور؟

- ببحث عن الأمان.. آسف تحبي تشربي إيه؟

- أي حاجة على ذوقك بس تكون سادة.
- أخاف لذوقي ما يعجبكيش
- ضاحكة قلت: أجرب

قلت : السكر بيظهر طعم الحاجة أحسن من لو شربتيها سادة.

وفجأة ضممتني إليك وأخذتني في أحضانك ونقشت على شفتي قبلة لن يمحوآثارها الزمن ولقد استسلمت لك بكل الدهشة والرغبة.. تحولت في لحظة إلى شفتين وبعد أن انتهت القبلة الأولى .. شددتك أنا للثانية وكانت تلك اللحظات أول سطرين في قصتنا الاستثنائية.. خطين ويتوازو.

***

ذهبت إلى منزلي في تلك الليلة وأنا في تلك الحالة التي طالما سمعت عنها كثيرا ولم تصبني قبل ذلك وهي انعدام الوزن.. كنت خفيفة.. رشيقة كأنني مصنوعة من النور فجأة اكتشفت نفسي .. إنني امرأة.

عندما جاءت الشمس ساحبة معها النهار لبدء يوم جديد كان في حياتي شيء غير معتاد قد بدأ..

وقفت أمام المرآة عارية أراقب تفاصيلي التي لم تدخل يوما في نطاق اهتماماتي..

ما كل هذا الثراء الذي أنا فيه، لقد اكتشفت يومها أنني جميلة بل وجميلة جدا شعرت بالفخر..

ملأت البانيو يومها بالماء الساخن وجلست وسط رغاوي الصابون أستعيد ذكرى تلك اللحظة، فدفء الحمام ذكرني بدفئه وسخونة الماء كانت على قدر سخونة اللحظة..

عجيب أمر اللحظة الأولى في الحياة.. تكون دائما استثنائية مهما تكررت معايشتنا لها فدائما ما نحتفل بها في الميلاد والزواج، وحتى لحظة الوفاة نحتفل بها فلماذا لا أحتفل بقبلتي الأولى.

بعدما احتفلت بقبلتي الأولى على طريقتي مع الماء الساخن والصابون، جاءني صوتك عبر الهاتف واثقا:

- ممكن نخرج سوا النهارده؟
- هانروح فين ؟
- هاتروحي معايا.
- فاهمة بس هانروح فين؟
- أنا المكان اللي هاتروحيه.
- مغرور.
- أشوفك كمان ساعة.

- حاضر..

- ماتتأخريش

ووضعنا سماعات الهواتف بدون (إلى اللقاء) فلقد كنا دائما على لقاء.. ومَنْ في تلك اللحظة يفكر في الفراق؟

فتحت دولاب ملابسي ووقفت أمامه حائرة ماذا أرتدي؟ أتذكر ليلتي السابقة فأشعر بالخجل والقرف من نفسي فقد كنت أرتدي بنطلون جينز قديم، وبلوزة أقل ما توصف به أنها رثة، وجاكيت كان في أحد الأيام جديدا، وكنت أرتدي هذه الملابس لما تمنحه لي من راحة، ولكني اليوم لا أبحث عن الراحة التقليدية بل أبحث عن راحة الجمال.. فالشعور بالجمال مريح جدا

هل اللون الأحمر مناسب؟ لا ليس مناسبا فهو يخلق جوا من الإثارة لا داعي له.. إذن هو الأبيض.. كلا أيضا، فهو لون بريء أحيانا محايد لا.. ماذا كان يرتدي أمجد بالأمس؟ هو الأزرق ما سأرتديه.. إنه رداء مكشوف قليلا.. لا يهم فأنا في موعد غرام لا موعد عمل.. غرام لماذا هو موعد غرامي؟ ومن أضفى عليه هذه الصفة؟ إنها القبلة، وحدها القبلة.

أريد أن أقول له أحبك ولكن أَوَ ليس المتعارف عليه أن الرجل هو من يجب عليه أن يبدأ بهذه الكلمة وأن تقول المرأة أفكر؟!

لا، نحن في القرن الحادي والعشرين فلماذا أساليب القرن التاسع عشر.. الحب هو الحب في القرن التاسع عشر أو القرن العشرين، ونظرية الجاذبية لن تتغير فلماذا نغير من نظرية الحب؟ كفى لا أريد أن أسمعكِ فأنت دائما ما تفسدين عليَّ حياتي ولحظاتي الثمينة، سوف أقول له أحبك فما المشكلة ولماذا أضيع وقتي في ألاعيب نسائية محفوظة منذ معرفة البشر بالحب لا دخل لكِ واخرسي للأبد..

أسكتُّ نفسي القلقة المجادلة بهاتين الكلمتين وذهبت إلى موعدي..

***

نظرت لنفسي في المرآة فوجدت نفسي جميلة أنيقة رشيقة جديرة بك وبلقائك الأسطوري..

كان هذا أول موعد غرام في حياتي، هو الأول من ناحية استعدادي له ما بين تهيئة الثياب وتمشيط الشعر، ووضع المساحيق و خلافه..

وصلت في الموعد والمكان المحددين وجدتك هناك في سيارتك الحديثة تتحدث في الموبايل وتضحك وتظهر في عينيك السعادة ..

ما إن رأيتني حتى أنهيت مكالمتك ونزلت من سيارتك وقبلت يدي وفتحت لي باب السيارة، اطمأننت حتى ركبت واسترحت وسط حسد كل النساء الموجودات على جانبي الطريق ولم لا يحسدنني؟

رجل وسيم وسيارة وقبلة على اليد وانحناءة، أما ما لم يشاهدوه فهو صفعة على القفا..

رحنا نتجول بالسيارة في شوارع القاهرة، وكانت تدور في كاسيت السيارة أغنية (آه لو قابلتك من زمان) وكنت سعيدة بها..

ما بين كلمة هنا وكلمة هناك عرضت عليّ أن نذهب إلى منزلك؛ فهذا أفضل فهناك نستطيع التحدث بحرية دون رقيب والجلوس دونما شعور بالضجر.

رفضت، فقلت إنك تشعر بتأنيب ضمير لما فعلته معي وأنك تتعهد لي بأنه لن يحدث مرة أخرى وطلبت مني السماح والعفو..

أين هذا الرجل المعتذر الذليل من الرجل الواثق الذي كان معي بالأمس، وكان على الهاتف من لحظات، لم أستطع المقاومة وسامحتك!

هل كنت غاضبة منك فعلا؟ ومع ذلك رفضت الذهاب إلى منزلك.

فقلت: أكيد انتي مش مسامحاني علشان كده رافضة تيجي معايا.

قلت: لا والله بس ..

مقاطعًا: لو جيتي معايا هاصدق إنك سامحتيني.. هه موافقة مش كده؟

قلت: حاضر.. ودائما ما كنت أقول لك حاضر وذهبنا إلى منزلك..

***

كنا دائما ما نتقابل في منزلك، جالسين على الكنبة البرتقالية التي من الممكن أن تصبح سريرًا، ننظر إلى الطريق من شرفتك بدون حوار تقريبا اللهم إلا صوت القبلات الحارة..

لم تصطحبني يوما لنسير على الكورنيش المنهك من أحوال العاشقين..

لم تذهب معي إلى السينما يوما لتنظر إلى جانب وجهي في الظلمة على ضوء الشاشة العملاقة وتهمس في أذني «أحبك»..

لم تحمنِي في معطفك يومًا من المطر، ولم تَسِرْ معي تحته..

لم تكن لي سحابة تحميني من لهيب الصيف..

لم تحضر لي هدية في عيد الحب..

وفي عيد ميلادي كنت دائما آخر المهنئين، مع أنك كنت أول البشر على قائمة اهتماماتي.

هل كنت في حياتك مجرد نزوة؟ وهل هناك نزوة تستمر ثلاث سنوات؟

كيف أحببتك؟ هل كنت عمياء بلهاء أم كنت مثل الأرض الشراقي في انتظار الماء لتجود بأفضل ما عندها، لكن للأسف كان الماء ملوثًا فجاءت الثمار مسممة تقتل من يأكلها..

أخبرني يا أمجد هل تقبل فاطمة أصابع يديك؟ هل تتغزل في شفتك السفلى؟ هل أغرمت بأذنيك؟ هل رأت ضرسك المحشو وتمنت أن تقبلك فيه؟ وهل ارتدت ملابسك بعد أن خلعتها لتستمتع برائحة جسدك على جسدها؟

هل وهل وهل..؟

رد عليّ، لا تكن كتلك اللوحات المعلقة في المتاحف تعبر عن كل شيء ولكنها صامتة كجثة في قبر.

كالموناليزا تحتاج إلى ألف ألف خبير كي يكشفوا سرها ومع ذلك سوف تظل اللوحة اللغز..

***

ذهبنا إلى منزلك، وفي المصعد سألتك عن أهلك وأين هم ولماذا تعيش بمفردك؟

قلت: أنا من قنا وأهلي كلهم عايشين هناك بس الوالدة قاهرية سابت القاهرة واتجوزت أبويا.

- ده حب جامد قوي.

- حقيقي جمع بين أمي وأبويا قصة حب كبيرة ممكن لو اتعملت فيلم يكسر الدنيا.

خرجنا من المصعد وأمام باب الشقة وأنت تفتحه قلت لي:

- على فكرة البيت ده بيت العيلة أبويا اشتراه مخصوص علشان أمي لما تحب تنزل مصر تزور أهلها تقعد المدة اللي هيا عايزاها وتستقبل ضيوفها كمان براحتها.

فتحت الباب وقلت لي اتفضلي

دخلت إلى الجنة وكالعادة كانت الشقة مضاءة، ولكن كان نور النهار أقوى من ضوء المصباح الكهربائي .

كان أثاث الشقة يجمع بين الذوق الراقي والفخامة في آن واحد، وكان اللون الأزرق هو السمة الغالبة على المكان أما ما لفت نظري فشيئان؛ الأول هو ركن صغير مؤثث على الطريقة الريفية حيث الكِليم الفلاحي والكنبة الاسطمبولي ولمبة الجاز، وصينية القلل، والثاني كنبة شديدة الجمال إلا أنها كانت فجة وسط كل هذا الجمال حيث كانت برتقالية اللون.

توجهت إليك بالسؤال عنهما فأجبتني: المكان ده بيفكرني بأجمل أيام حياتي مع جدي، كان جدي إنسان رائع جدا كان بيحب الحيوانات بشكل كبير وكان مربي قطط وكلاب وقردين.

مندهشة قلت: مربي قرود؟

- وكمان كان مربي تعابين وكان يحطلهم البيض مكان ماهمه موجودين. تعرفي إن عمر ما حد فيهم اتعدى على التاني القطط والكلاب

والقرود، حتى التعابين عمرها ما هاجمت حد، جدي ده كانت الناس تحبه جدا لما حد من الفلاحين كان يتعب من الفِلاحة في الغيط كان يشمر جلابيته ويشتغل مكانه ويقوله استريح انت يا خويا.

- ده كان طيب قوي..

- بس عارفة كان له هيبة غريبة وكانت كلمته نافذه على كل الناس.. كلمته كانت قانون على الكبير قبل الصغير ده حتى العيلة لما كانت رافضة جواز أبويا من أمي علشان أبويا كان لازم يتجوز بنت عمه هوا اللي أمر إن ابويا يعمل اللي هو عايزه ،وإنه يختار، وإن بنت عمه هيا كمان تختار.

- طبعا بباك اختار مامتك.

- وبنت عمه اتجوزت من حبيبها جارها وماحدش قدر يقول أي كلمة وكانت حساباته حسابات الحب وبس.

- يا بختك بجدك.

- أنا كنت أول أحفاده، وكان غاوي يعيش في البيت القديم، كان عفشه بدائي زيّ ده وكان دايما ياخدني معاه هناك.

- علشان كده خدت كل الدلع والحب.

- تعرفي مافيش أي حب في الدنيا ممكن يرضيني يا ريته كان عايش، كانت حاجات كتير اتغيرت أنا آسف تشربي إيه ؟

- قهوة سادة.

- يا ساتر يا رب تاني! على روح المرحوم، ليه القهوة السادة.
- أنا متعودة على كده، أشرب كل حاجة سادة، حتى العصير أشربة فِرِش ومن غير سكر.
- من النهاردة جربي تحطي على كل حاجة هبابة سكر، هاعملك قهوة على الريحة كبداية.
- بس تكون مغلية، ما بحبش الوش.
- ينفع أعملك نسكافيه، بصراحة مش بعرف أعمل القهوة مغلية علشان ممكن تفور.
- أشرب نسكافيه.

خرجت أنت ووقفت أتأمل البيت وأتخيلك تمارس طقوس حياتك اليومية فيه، وكان على أحد الطاولات مجموعة صور سمحت لنفسي بمشاهدتها، وتوقعت فيها صور أبيك وأمك، وجدك ووجدت صورة لك وسط مجموعة من الشباب تقف فيها بجوارك فتاة جميلة ذات ضفائر طويلة تنظر إليك، أخذت أتأملها طويلا، وفجأة دخلت عليّ حاملا صينية عليها (ماجّان) كبيران من النسكافيه أخذت واحدا ووضعته لي على الطاولة والثاني أمسكته في يدك ووقفت جواري تنظر للصورة قائلا:

دي يا ستي صورتي أنا وإخواتي وولاد عمي، اللي على الشمال ده أحمد أخويا واللي جنبه دي شيرين أختي واللي جنبها..

قاطعتك: مين اللي جنبك دي؟

- دي بنت عمي هي مش بنت عمي، والدتها بنت عم أبويا ماتت وهي طفلة وسابتها هي وأخوها سيف اللي واقف جنبها، لما أبوها ابن عم أبويا برضه حب يتجوز، أبويا خدهم يربيهم عنده، ده حتى مدخلهم نفس المدارس اللي دخلناها، أبويا ده زي جدي تمام راجل طيب.

وأخذت مني الصورة ووضعتها مكانها وأمسكتني من ذراعي ناظرا في عيني وقلت: من الصبح عمّاله تمارسي معايا أسلوب الصحفيين في السؤال والجواب ممكن أمارس أنا نفس الأسلوب؟ كلميني عن نفسك.

وأخذت أحكي لك من هنا وهناك؛ عني، وعن أبي، وأمي، وإخوتي، وحياتي حتى تجاوزت الساعة السابعة مساء.

- الساعة سبعة ولازم امشي أنا اتأخرت وعندي شغل لازم أخلصه علشان يلحق المطبعة.

- بتحبي السمك مقلي ولا مشوي؟

- بقولك امشي تقوللي سمك؟

- أنا عازمك على سمك مقلي ومشوي وجمبري وكابوريا هانعمل مشرحة سمك إيه رأيك؟ تاكلي هنا واللا في مطعم؟

- أنا مش هاكل أنا هاروّح.

- يبقى هنا أحسن علشان نزفر الدنيا براحتنا، أنا هاكلم المطعم يجيب لنا الأكل.

- يا أمجد بقولك أنا مروحة.

- ما تروحيش واقعدي كلي معايا أنا لوحدي باستمرار وماصدقت لقيت حد يفتح نفسي أرجوك.

ونظرت في عيني متوسلا فبقيت لنأكل السمك ...

- أنا اللي هاعمل الشاي.

قلت هذا بأعلى صوتي وأنا خارجة من باب الحمام بعدما غسلت يدي وأصلحت زينتي التي أفسدها تشريح السمك، وكنت أنت في المطبخ تضع الشوك والبقايا في القمامة ووقفت أمام باب المطبخ فقلت لي:

- بتعملي الشاي ازاي بقى؟

- ميه مغليه و الباكت في الميه.

- وده يبقى شاي ده يا ماما يبقى مرقة شاي، وسعي وأنا اوريكي الشاي اللي بيحبس بعد الأكل بيتعمل ازاي، وأضفت بلهجة صعيدية: واه عليكم يا أهل مصر حتى الشاي مصختوه .

ضحكت منك بشدة ووقفت أرقبك وأنت تصنع الشاي، كنت في انتظار أن تباغتني بقبلة، أو أن تحتضنني كما يحدث في الأفلام والروايات

ولكنك كنت أمينا وعند وعدك فلم تحاول أن تمسني، أشعلت سيجارة فاندهشت وبان عليك الانزعاج.

- لو هاتشربي سجاير دخني بعيد مابحبش ريحة الدخان.

- عايزة اتفرج عليك وانت بتعمل الشاي.

- طب لو سمحتي اطفيها ما بحبش ريحة الدخان بجد.

- حاضر هاطفيها علشان خاطرك، لو حد تاني كان يولع ولا أطفيها.

انتهينا من صنع الشاي وذهبنا لكي نجلس على الكنبة البرتقالية والتي لم تُجب عن سؤالي ما سبب وجودها وسط هذا الجو الأزرق، فأعدت عليك السؤال مرة أخرى:

- الكنبة دي مريحة قوي وذوقها جميل بس مش ماشية مع باقي البيت ازاي جبتها؟

- مش كل حاجة لازم تعرفيها من أول مرة سيبي حاجة نتكلم فيها المرة الجاية.

- بس أنا مش هاجي هنا تاني .

- وهو احنا مش هانشوف بعض إلا هنا ممكن نتقابل في أماكن كتير جدا، وساعتها ابقى احكيلك عن الكنبة البرتقاني عارفة بنقول على البرتقان إيه في قنا بردقان.

- أنا ماشية خلاص خلصت الشاي وكلت السمك.

- ماتنسيش لما تروحي تطمنيني عليكي، إبقي اديني رنة على الموبايل وأنا لو صاحي هاكلمك.

وذهبت معي حتى باب الشقة وفتحت لي الباب وطلبت المصعد وانتظرت حتى هبط المصعد بي إلى الدور الأرضي ..

***

كلما تذكرت أمجد وما كان بيننا أشعر كأن مطارق تهوي على رأسي من حيث لا أدري، أشعر بالبرودة والحرارة معا في آن واحد كأنني عدت من جديد معه أشعر ببرودة مشاعره، وحرارة رغبتي فيه.

***

لم أكن أدرك من قبل ماهي علاقتي بأمجد؟ كنت أسميها بعلاقة حب أتمنى أن تتوج بالزواج..

الآن بعدما انتهت العلاقة أجلس مثل غيري أشاهد ما حدث من مقعد أخير في قاعة سينما فارغة إلا مني ..

فأنا المؤلفة، والممثلة، والمخرجة، و المشاهدة الوحيدة، أعرف في تلك اللحظة أن علاقتي بأمجد كانت علاقة النصف..

فلقد كانت الخطيئة بيننا تتوقف عند آخر حد للنصف الأعلى ..

كانت الفضيلة بيننا تبدأ عند أول حد للنصف الأسفل.

كنا نحافظ على عذرية الجسد، ولم نفكر في الحفاظ على عذرية الروح..

حتى علاقة الحب بيننا كانت من طرف واحد هو أنا..

كل شيء بيننا كان يقف في المنتصف..

حتى الحلم بيننا كان يقف عند المنتصف..

الشيء الوحيد المكتمل في علاقتنا هو النهاية.. الفراق، فلا أمل بيننا لعلاقة جديدة حتى علاقة النصف.

من يجرب النصف مرة يعرف جيدا أنه يجب عليه ألا يفعلها ثانية، فأنت تعطي وغيرك يأخذ.. تتألم وغيرك يسعد.. تبكي والآخر يضحك، لا وجود بينكما للفعل المشترك فقط الوقوف في المنتصف.

***

في الطريق إلى منزلي في هذا اليوم كان الجو شديد البرودة وجميع السائرين يرتعدون من البرد إلا أنا..

هل السبب أكلة السمك؟

أم أنه الحب الذي بدأ يعرف طريقه إلى قلبي لأول مرة فزحف معه الدفء إلى قلبي؟

كنت سعيدة دافئة جميلة، ووجدت لهذا الجمال انعكاسا في عيون المارة، وحينما دخلت إلى المنزل رأتني أمي ونظرت في عينيّ طويلا قبل أن تقول (يارب يا بنتي اشوفك عروسة)..

سألتها عن سبب هذا الدعاء فلم تجب فقط ضحكت، الغريب في علاقتي بأمجد أنني لم أخبر أمي عنها أبدا حتى وإن لمحت آثارها عليّ..

أخبرت جميع صديقاتي بها، حتى حماقاتي مع أمجد أخبرت بعضهن بها ما عدا أمي، وبماذا كنت سأخبرها..

كأنني من البداية كنت أعد نفسي لهذه النهاية غير السعيدة على الإطلاق وأردت أن أجنب أمي تلك النهاية ..

كان هناك شيء في نفسي يخبرني في بعض اللحظات بأنه لن يكون لي بل لأخرى..

ذهبت إلى غرفتي أتأمل نفسي في مرآتي، وجدت علامات السعادة بادية على وجهي فأرجعت ذلك إلى أكلة السمك فهي التي صبغت وجهي بهذا اللون الوردي..

حينما رقدت في فراشي عرفت من أين تأتي الأحلام الجميلة إنها من ذكريات السعادة..

تعرف قيمة اللقاء الجميل بما تفعله بك ذكرياته وكلما استرجعتها تشعر بنفس النشوة وكأن اللقاء لم ينته ..

بعثت له برنة على المحمول فرد عليّ هو الآخر برنتين ،أمسكت سماعة الهاتف المنزلي أبحث في مواقع النغمات الخاصة بالمحمول لأبحث له عن نغمة خاصة، وجدت نغمة مناسبة وهي أنا لك على طول، وظلت تلك النغمة على جميع هواتفي المحمولة علامة له..

بعد فترة دق تليفون المنزل وكان هو المتحدث، وكنت أنا في المنزل المسئولة الأولى عن التليفون بحكم عملي الصحفي، جاء الحوار بيننا طويلا مليئا بالغزل، والحب، والتدليل والضحك وكل شيء جميل وبعد حوالي ساعتين من التحدث أنهينا المكالمة وشعرت بعدها بالوحدة الفظيعة، حاولت الاتصال بنور إلا أنها اعتذرت عن التحدث معي بسبب وجود زوجها في المنزل، اتصلت بوردة كانت نائمة، ولم أستطع الاتصال بسهى لأن والدها لا يستقبل مكالمات بعد العاشرة والساعة كانت تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل، لم أجد ما أفعله فقررت النوم، وكنت أعتقد أني لن أنام بسهولة ولكني غرقت في نوم عميق وكنت أنت ضيف الأحلام العزيز..

***

ذهبت إلى عملي في اليوم التالي وأنا شاردة الذهن تماما، ولقد لاحظ الجميع هذا عليّ، كنت أتذكر اللقاء وأخترع حوارًا آخر ومواقف أخرى غير ما فعلناه تزيد من إحساسي بنشوة اللقاء ومن رغبتي في تكراره..

دق جرس المحمول بالنغمة الجديدة وكنت أنت المتصل وبصوتك العميق الرخيم قلت:

- صباح الخير.
- صباح النور.
- أخبارك إيه نمتي كويس امبارح؟

- نمت بسرعة جدا كنت فاكرة انه مش هايجيللي نوم.
- كنت معاكي في الحلم مش كده؟
- نفسي تبطل غرور.
- جاوبي.
- حقيقي حصل.
- فيه حد جنبك ؟
- أنا في الشغل قاعدة في المكتب.
- ممكن اقابلك النهارده.
- بسرعة كده، امبارح ما كفاش.
- لو مش عايزة بلاش.
- ماتزعلش أنا اتفاجئت.
- خمسة مناسب؟
- خليها ستة، فين ؟
- عندي في البيت.
- تاني.
- إيه المشكلة فيها إيه؟
- لما آجي هاتفاهم معاك في الموضوع ده.

بحبك، قالها وبعث لي قبلة في الهواء وأنهى المكالمة وسط ذهولي حتى أن صديقتي وردة رأت هذا الذهول فأخذتني بعيدا لتسألني مالك يا أبية فيه إيه؟

هاقولك، وجلست أحكي لها.

بعدما فرغت من حديثي مع وردة، قالت لي يا بختك يا ريت حسين يحبني بالطريقة دي، على فكرة حاسبي على نفسك.

ضحكت بشدة وقلت لها: أنا مش ماجدة في المراهقات.

تركتها وذهبت لأحسن من زينتي لكي أذهب في ميعادي وعلى باب المجلة قابلت سيد قائلا: إيه الجمال ده يا أبيه رايحة فين؟

ورايا معاد مهم ميرسي على مجاملتك. اكفهر وجهه ولكني تركته وذهبت..

***

سيد زميلي في العمل، يحبني جدا منذ أن رآني من ثلاث سنوات، كان حبه لي من النوع القوي الذي تشعر معه أي امرأة بالحماية وأن هناك رجلًا مسئولًا عنها، ومع ذلك لم أستطع أن أحبه، فسيد لم يقتحمني، دائما كان ذليلا في حبه لي على الرغم من كبريائه الشديد مع الآخرين، فهو دائما يتسول حبي، إذا ألمحت أن هناك شيئًا قد راق لي ولو في جملة عابرة في اليوم الثاني أجده أمامي، آرائي كلها سليمة، أخطائي دائما ما تغفر ولها مبررها.

كل هذا كان يثيرني حتى الجنون، فلم أجد له موقفا أو رأيا، كان طعمه في فمي كالماء الفاتر. حتى حينما سخرت من اسمه لَم يغضب، فقط اتهمني (بالمعيلة) وسامته لم تشفع له، حبه لم يشفع له، ولا اهتمامه، كانت مشكلته معي أنه كان بلا شخصية، أشعر معه بالحماية نعم، أنه مسئول عني نعم لكن لم أشعر معه بالحرارة وشعرت بها مع أمجد..

حتى حينما عرض عليّ في أحد الأيام الزواج ،كنت متخمة من جرعة حب كبيرة أعطاني إياها أمجد فرفضت ،كان قلبي ممتلئًا بالحب فعافته نفسي..

***

كانت قصتي مع أمجد أحداثها سريعة متلاحقة لدرجة جعلتني غير قادرة على الالتفات أمامي أو ورائي لأرى قليلا مكان قدمي، كنت معه ككرة من الثلج تتراكم وتتراكم وتنزلق بسرعة جنونية حتى لحظة الاصطدام بالجبل فتتناثر و تتحطم وتتحول لأشلاء تخبرك عن وجودها يوما ما ..

واستمرت الكرة في الانزلاق لمدة ثلاث سنوات حتى تحطمت على يد المأذون الذي عقد قرآنه عليها وكان منديله الأبيض كفني ...

طرقت الباب ففتح لي أمجد، وكان يرتدي قميصًا أبيض اللون ترك أزراره مفتوحة حتى منتصف صدره فبرز منه شعر صدره الكثيف،

وكان يرتدي بنطول جينز أزرق اللون وشبشبا منزليا، كان يبدو عليه أنه فرغ من الاستحمام منذ لحظات قليلة، ابتسم لي وظهرت حبات اللؤلؤ التي في فمه ويسمونها مجازًا أسنان، دعاني إلى الدخول وتركني وهرول مسرعا تجاه المطبخ ووجدته يحدث شخصا ما، وعاد بعد دقائق.

- أصل طنطك نسل شاه أمي بعتت لي من البلد زيارة بط وفطير مشلتت ورز معمر وكل حاجة سخنة نار، قلت اللقمة مش هاتنزل من غيرك، ثواني واحضر السفرة واللا تاكلي في المطبخ؟

- كنت بتكلم مين دلوقت؟

- ده مسعد، واحد من البلد مجند هنا في مصر كل ما ينزل من الأجازة أمي تبعت معاه الزيارة، ومشى إلى باب المطبخ، ماقلتيش أحضر الأكل فين؟

- أنا اللي هاحضره واللا فاكرني ضيفة؟

- لأ بس....

- مابسش قدامي على المطبخ ياللا.

قمت بتجهيز الطعام وكان شهيًّا جدًّا، مصنوعًا بكل حب وشوق أم لابنها البعيد عن حضنها، بعدما انتهينا من الأكل قمت أنا بغسل الصحون وقمت أنت بإعداد الشاي الصعيدي ..

كان كل منا مشغولا بما يفعله، إلا أن دفء اللحظة كان يلفنا، وجعلني أشعر وكأنني في منزلي وأنك لست بغريب عني بل أني أعرفك من سنين طويلة جدا..

حانت مني التفاتة إليك فوجدتك تنظر لي نظرة طويلة جدا دون أن أشعر، فابتسمت لك ولم تبتسم بل اقتربت مني وسألتني هامسا:

- أبية ممكن أحضنك؟

وكعادتك لم تنتظر الإجابة ووجدتني بين أحضانك بدون أن تقبلني، وهمست لي: أنا وعدتك إني مش هابوسك بس ما وعدتش إني مش هاحضنك.

كان عناقًا طويلًا حارًّا صامتًا وبعدما انتهى وجدت نفسي أندفع من المطبخ إلى حيث حقيبتي وأهرول خارج المنزل، لم أستقل المصعد بل من شدة اندفاعي وجدت نفسي أنزل على السلالم إلى الشارع لم أتوقف إلا أمام باب منزلي، وأنا ألهث فتحت الباب بمفتاحي الخاص، روعت أمي من منظري، وسألتني عما حل بي فأخبرتها أني كنت على وشك التعرض لحادث في الميكروباص، وهذا سبب فزعي، وارتميت في أحضانها أبكي بشدة وهي تحاول أن تهدئ من روعي بلا فائدة، فأخذتني إلى غرفتي ووضعتني في الفراش بعدما خلعت عني ملابسي وألبستني ملابس المنزل، وكنت ما أزال أرتعد فأشعلت المدفأة وأخذت تقرأ على رأسي

القرآن حتى نمت، طلبت منها أن تظل بجواري فباتت ليلتها بجواري على الفراش وارتفعت حرارة جسدي بشكل كبير، وظلت أمي بجواري تصنع لي كمادات الماء البارد، وأتى أخي بالطبيب وجاءت أختي بحملها لتجلس بجواري حتى فات يومان على هذا اللقاء..

***

كما مرضت فجأة شفيت فجأة، واليوم عرفت السر حينما أصبت بك، كنت كالمرض الخبيث الذي حينما يدخل إلى الجسم يظل هذا الأخير يقاوم حتى ينهزم أما الفيروس المنتصر فيبدأ في تغيير كيميائية الجسد.

أَوَليس الحب يغير من كيمياء الجسد؟ وأصبحت أنت منذ تلك اللحظة دائي ودوائي..

***

حينما استعدت توازني مرة أخرى شعرت بألم في جسدي مختلف لم أشعر به من قبل، كانت الرغبة تمزقني أشتاتا، كنت أريدك بكل اللغات بلغة اللسان والعقل، والجسد..

فتحت كل الروايات التي تتحدث عن الحب والجسد.

حفظت كل المشاهد الجنسية في الأفلام الخليعة.

أصبح شعر الحبّ هو ملاذي في وحدتي القاتلة، حتى جاءت اللحظة الحاسمة، لحظة صممت فيها أن أضع حدا لعذاباتي تلك، اتصلت بك فجاءني صوتك عبر الهاتف فاترا كئيبا:

- أهلا يا أبية عاملة إيه مش باينة يعني؟

- كنت عيانة مش تسأل عليّه؟

- انشغلت شوية؟ أصل عندي ناس من البلد.

- مش عارف تتكلم؟

- حاجة زي كده.

- مع السلامة يا أمجد.

ووضعت سماعة الهاتف وأنا أوشك على الانفجار، وبدون أن أشعر اتصلت بسيد.

- إزيك يا سيد، وراك حاجة؟ أنا عايزة أخرج تعالى ودّيني السينما.

جاء صوت سيد بكل فرحة الأرض:

- أبية مش معقول! طبعا فاضي ولو مش فاضي أنا تحت أمرك تحبي تروحي فيلم إيه؟

- أي حاجة أي حاجة لما نتقابل نشوف.

- حاضر ساعة واكون مستنيكي، فين؟
- في التحرير قدام المجمع كمان ساعة.
- أمرك، مع السلامة.

كنت مخنوقة من كبرياء أمجد وعجرفته، الآن أنا مخنوقة من سيد وطاعته العمياء، لم أدر ماذا أفعل ولم تنقذني دموعي، فارتديت ملابسي على عجل، وأنا متأهبة للخروج قلت لأمي التي كانت قلقلة أنني في حاجة للتمشية قليلا لأني سئمت من جلسة المنزل.

وكان خروجي مع سيد، وكان الفيلم هو (أحلى الأوقات)، وتساءلت هل عشت أحلى الأوقات مع أمجد وانتهى الأمر أم لا يزال هناك وقت آخر أجمل؟ انتهت الأمسية وأنا في حالة أفضل، وكان الإباء الذي أستمده من اسمي قد فعل معي فعلته فقررت أنني لن أكلم أمجد أبدا ما حييت وفعلا نفذت القرار..

***

استمرت تلك القطيعة حوالي ثلاثة أشهر، انتهى خلالها الشتاء والربيع وكنا على مشارف الصيف، بكل ما يحمله من لزوجة وحرارة، وكنت قد استطعت أن أنحيك من عقلي تماما ووضعتك هناك في أحد الأركان المظلمة من ذاكرتي، حتى كدت أن أنساك، ولكن كانت تلك الفترة القصيرة كفترة الحضانة التي يحتاجها المرض ليتمكن في هدوء وسكينة من الجسد إلى أن يعاود الظهور بقوة مرة أخرى بصورة تستحيل معها المقاومة..

في تلك الفترة انشغلت بعملي بصورة كبيرة، ولقد نصحتني نور أن ألتفت إلى سيد فهو على حد قولها (ينفع جوز كويس سيبك من الكلام اللي لا بيجيب ولا بيودي اللي بتقريه في الكتب)، كانت نور مقتنعة بشدة أن المرأة في حاجة إلى زوج من شاكلة سيد يراعي طلبات المنزل ويذهب بالأطفال إلى المدرسة، ويفعل كل كبيرة وصغيرة في المنزل وخارجه، فطبيعة عمل زوج نور كانت تفرض عليها الاهتمام بكل شيء كأنها هي رجل البيت، وحينما يعود مهاب إلى المنزل يكون متعبا جدا لدرجة تجعله غير مهتم بها أو ببناتها الثلاث، ولكن هل لابد أن تكون نور على حق و أرى الموضوع كما تراه هي؟

***

المرأة هي المرأة مهما اختلفت الثقافات واللغات، فحينما أوشكت مدام إيفيت عاصم على الوضع أصرت أن تكون بجوار والدتها بباريس وحول نساء عائلتها الفرنسيات والأطباء الفرنسيين فهم فقط من سيفهمون صراخها الفرنسي وآلام الوضع الفرنسية حتى لو كان الجنين الذي في أحشائها مصريا..

نور عبد الهادي ابنة السفير المصري عبد الهادي عاصم، وزوجته السيدة إيفيت عاصم المولودة مع أول ضوء للشمس فأسماها والدها نور، وأطلقت عليها الأم أورورا الإلهة المسئولة عن نشر ضوء الفجر.

تنقلت نور نتيجة لعمل الأب بين عواصم العالم ما بين لندن وباريس، وبرلين الشيوعية وموسكو مرورا بنيودلهي وكينيا والرباط ..

ولدت نور بباريس وظلت فيها حتى بلغت الشهر السادس، حينما جاء موعد إجازة الأب في مصر والتي يقضيها في مدينة الزقازيق مسقط رأسه ومحل إقامته هو وأهله..

اتفق والدها ووالدتها منذ أن تزوجا على قبول كل منهما لعادات الآخر وتقاليده ودينه؛ فالأم لا تزال مسيحية وإن احترمت الطقوس الدينية لزوجها، وهو أيضا فعل ذلك فلم يمنعها يوما من الذهاب للكنيسة أو اقتناء الأيقونات في المنزل سواء في فرنسا أو مصر ..

حينما ذهب عبد الهادي عاصم سكرتير ثاني السفارة المصرية بباريس للتقدم للمسيو جان جيرار لخطبة ابنته وافق مع أن الخاطب كان مصريا مسلما، وقال له أنا لا أخشى على ابنتي من تغيير ديانتها إلى أخرى حتى لو كانت الديانة البوذية فهل هذا سوف يغير من كونها ابنتي؟

أنجبت الأم بعد نور أربعة أطفال بنتين وولدين جميعهم كانو يحملون الملامح الأوروبية إلا هي، فكانت كلما نظرت إليها أعتقد أني أمام إحدى الملكات الفرعونيات..

عانت نور طوال حياتها، الغربة نتيجة تنقلها من بلد لآخر، فكلما تعلقت بمكان وألفت من فيه تتركه مضطرة لتذهب إلى مكان آخر لا تعرف عنه شيئا..

والغربة وسط عائلتها، فهي لم تكن فرنسية صرفة، ولم تكن مصرية خالصة، كانت مشدودة للناحيتين طوال الوقت ..

في باريس من حقها ارتداء البيكيني والجلوس على شواطئ الريفيرا تستمتع بالشمس الذهبية على الجسد الأسمر الساخن، وفي الزقازيق يجب أن تمتد ثيابها حتى الكعبين وتخفي الصدر والعنق وحبذا الشعر أيضا..

كانت كأنها في حفلات السفارة، للكوكتيل ملابس وللعشاء ملابس، وللاحتفال الرسمي ملابس أخرى..

المكان الوحيد الذي كانت تشعر فيه بالألفة والأمان هو حضن جدتها الحاجة شهدة، حيث قصص لولية بنت مرجان، والطحان وست الحسن والجمال..

لم تكن تحب أن تسمع قصص الجميلة والوحش، أو هيدي أو أشعار لامارتين..

كانت جدتها تحبها بشكل خاص؛ لأنها كانت ترى نفسها فيها، فلقد كانت تشبهها كأنها هي، وكان حب الجدة خالصا بلا أغراض فكان يدير رأسها، ولا يعوضها عنه أي حب آخر..

كان والداها يعدونها لتكون زوجة، لسفير أو لابن أحد الأثرياء العرب وإذا (اختشى الحظ على دمه) زوجة لأحد الأمراء العرب..

لكن نور فاجأتهم، وقررت أن تختار لها وطنا، وكان وطن الحاجة شهد. حينما أنهت نور دراستها الثانوية صممت أن تكمل تعليمها في مصر رغم دهشة الجميع، فالكل يطمح إلى الدراسة في الخارج، أما هي فمصممة على قرارها فكانت كلية الآداب قسم اللغة الفرنسية، فهي تجيدها ولا تحتاج فيها لمجهود للدرس والتحصيل، فكانت تبحث عن دراسة البشر والمكان حتى وجدت الحب في مهاب ضابط حرس الجامعة والذي بعد لقاءين أصبح هو الوطن ..

ذهل الأب، كاد الخبر أن يصيب الأم بالذبحة، ولكن لا مجال للنقاش، فلم يزل في الذاكرة كلمة الأب الفرنسي وهل البوذية سوف تغير من كونها ابنتي؟ وهل ضابط الشرطة المصري لن يجعلها ابنتهما؟

وفي فرح ريفي في الزقازيق، بين الحناء، وشربات الفرح الأحمر وزغاريد النسوة استبدلت نور بجواز السفر بطاقة شخصية من سجل مدني الزقازيق..

***

كنا نجلس أنا ونور في مكتبها في محل لعب الأطفال، أنا أبكي أمجد نتيجة القطيعة، وهي تتحدث عن مهاب، حينما دخلت علينا وردة باكية.

لم نفاجأ أو نفزع فدائما ما كنا نراها هكذا، وخمنا السبب. من المؤكد أنه حسين قد مارس معها ألاعيبه ودعاباته الثقيلة التي تدل على حب

عميق يكنه لها، لكنها لم تكن لتفهم ذلك الأسلوب، فهي مؤمنة بنظرية (اللزقة) فالحب معناه الالتصاق بالمحبوب، وتبادل النظرات في وله وكلام معسول...

وعلى الرغم من أني كنت أسخر من تلك النظرية إلا أنني كنت أرغب في أن أمارسها مع أمجد، ولكنه لم يكن ليعطيني الفرصة أبدا.. كنت أكذب على نفسي ولم أكن بشجاعة وردة...

في هذا اليوم وجدت نور تخرج عن شعورها بعدما حكت لنا وردة عن سبب بكائها وقالت لها: انتي أهلك ماعرفوش يربوكي.

اندهشت مما قالته نور، وردت وردة: أنا متربية كويس و أخلاقي عالية.

أجابتها نور: حد اتكلم عن الأخلاق، أنا بتكلم عن التربية، انتي صحافية شاطرة، وبنت جميلة، وأخلاقك عالية، بس ماحدش علمك إزاي تعاملي الناس، ممكن أي حد يمسكك يلاعبك كيكا على العالي وكيكا على الواطي، ويتريق عليكي وانتي فاهمة قصده إيه بس ماتعرفيش تردي عليه، وكل اللي تعمليه إنك تقعدي تعيطي، قصدي بالتربية إنك تعرفي الدنيا وتفهمي ناسها.

ردت وردة ببلاهة: يعني إيه؟

أطلقت أنا ضحكة رنانة، وكادت نور أن تنفجر من الغيظ..

وردة اسم على مسمى، فهي رقيقة جميلة كالوردة البيضاء الصافية، ومهما مر عليها العمر تظل تجود برائحتها الزكية حتى أنفاسها الأخيرة..

كانت الابنة الكبرى لأب وأم من ريف مصر، كان الأب يعمل مهندسا في ورش السكة الحديد ويقيم في القاهرة بمفرده، خافت عليه أمه الست وردة والتي سميت وردة على اسمها من (بنات مصر) – وهي لا تعلم أن بنات القاهرة لا ينظرن لأمثاله – فقررت أن تزوجه من إحدى قريباتها فكانت سناء ابنة الشيخ طاهر مؤذن المسجد الكبير، والتي لم يكن لها رأي في الزواج، جاءت بعد طقوس الزواج لتحيا حياة معزولة عن الجميع فلم تكن قادرة على التأقلم مع ما حولها من مظاهر حياة العاصمة، وأنجبت وردة وبعدها علياء ثم التوءم أحمد وعلي. وحينما كانت وردة في الصف الثاني الإعدادي توفي والدها، واستطاعت الأم الريفية بحكمتها وتوفيرها وبمعاش الأب أن تؤمن لأبنائها حياة كريمة حتى تخرجت وردة في كلية الآداب قسم صحافة، ولكفاءتها(حينما كان للكفاءة وزن) وبعيدا عن الوساطة عينت في أكبر الصحف القومية..

كانت مشكلة وردة الوحيدة هي الرجل، بفقدانها الأب مبكرًا ظلت تبحث عنه في كل الرجال في مدرّسي المدرسة، في دكاترة الكلية، كانت أي كلمة حب من رجل وقليل من الحنان يجعلانه حلم العمر ورفيق الدرب..

خطبت مرتين وفشلت في إتمام الزواج، تعرفتُ عليها في الكلية وتحديدا في مكتبة الجامعة، كانت تجلس بمفردها دائما تقرأ كتب الشعر وتظل ترددها حتى تحفظها عن ظهر قلب، وكان هذا يدهشني جدًّا فصممت أن أعرف ما وراءها فتقربت منها فوجدتها فتاة غير عادية شديدة الطيبة، مدهشة بثقافتها ومدهشة بسذاجتها..

إذا كان قد جمعتني بنور كافيتريا الجامعة وبوردة مكتبة الكلية، فإننا لم نفترق حتى الآن، كانت صداقتنا كدراجة بثلاث عجلات لا تسير بدون إحدانا، جمعني بوردة بعد التخرج عمل في إحدى المجلات الخليجية والتي تتعامل مع موظفيها بالدولار فكانت تعمل معنا باسم مستعار وهو(فتاة وحيدة) حتى لا ينكشف أمرها في الجريدة الحكومية التي تعمل بها.

علاقتها بحسين غريبة بعض الشيء، في البداية كان معجبا بها وكانت تكرهه، لصوته الجهوري، ودعاباته الثقيلة ونظراته الوقحة التي يسقطها على أجساد النساء..

لما يئس منها التفت لفتاة أخرى وتزوجها وبعد فترة وجيزة طلقها، في هذه الأثناء عرفت أنها غارقة في هواه، ولكنه قد أخذ موقفا سيئا بعد تجربة الطلاق تجاه المرأة بوجه عام وتجاه الزواج بشكل خاص..

ظل على حبه القديم لها، وبادلته هي نفس الشعور، ولكنه لم يفاتحها في الزواج حتى الآن، وكانت تلك مأساتها...

ما أصاب نور بالغيظ الشديد منها أنها جاءت تشكو من أنه قال لها إنه معجب بجسدها ويتمنى أن يحتضنها وأن هذا يعني (إنه مش بيحبني أنا، ده بيحب جسمي وعايز يعمل معايا حاجات قليلة الأدب وإنه لو كان بيحبني ما كانش طلب مني كده)..

***

جاء اليوم الذي كنت أنتظره، ومن كثرة ما انتظرته نسيته حتى جاء، كنت أنهيت عملي، ومنهكة بصورة غير طبيعية وأريد أن أجد عفريت مصباح علاء الدين يذهب بي إلى المنزل في ثانية وبما أني لن أجده تحاملت على نفسي ونزلت إلى أسفل دون حتى أن أحرك رأسي ردا على تحية من أحدهم ..

وقفت في انتظار تاكسي، فلم أستطع أن أنتظر الميكروباص، وجدت سيارة فارهة بيضاء اللون تقف أمامي فلم أهتم بها – فقد كانت سيارة أمجد حمراء اللون- وجدت زجاج الباب الأيمن يفتح وشخصا يناديني:

- أبية أبية

كنت قد نسيت حتى نبرات صوته فنظرت داخل السيارة لأرى من يناديني فكان هو، امتلكني وقتها غضب شديد مختلط بفرحة غير طبيعية نظرت في عينيه نظرة طويلة غاضبة مندهشة وفجأة تبدد كل الإرهاق الذي كنت فيه واستحال إلى طاقة غير عادية، وأخذت أجدّ

في السير أبتعد عنه حتى أنني سرت عكس اتجاه سيارته حتى لا يلحق بي ولكنه ترك السيارة وأوقف الشارع خلفه وأمسكني من ذراعي وجذبني بعنف صارخا فيّ (بلاش شغل العيال ده الشارع كله بيتفرج علينا ولو ماركبتيش هاشيلك بالعافية وادخلك العربية ولو حد اتكلم هقوللهم أختي)

كنت أعرف جيدا أنه ينفذ كلمته ثم إن معظم من يوجدون في الشارع يعرفونني جيدا فامتثلت لأمره وركبت معه السيارة وكان في حالة من العصبية أصابتني بالخوف منه حتى أني لم أجرؤ على التفوه بكلمة خشية أن أغضبه..

انطلق بالسيارة وبسرعة شديدة لم أجرؤ أن أسأله إلى أين نذهب، وبعد قليل توجه إلى الطريق الصاعد لمنطقة المقطم وتوقف أمام إحدى الفيلات قائلا انزلي، وتركني ودخل إلى المكان فتبعته..

وقفت في منتصف المكان، كان شديد الذوق وإن لم يكن على نفس طابع منزله السابق، ووقف في المنتصف، يده في وسطه قائلا:

- أبيه أنت عارفة إني باحبك ولا لأ؟

لم أنطق فصرخ :

- مش بكلمك ما تردي!

بنفس حدته أجبته :

- لأ مش عارفة إذا كنت بتحبني ولا لأ.

- واللي حصل بينّا كان إيه؟

- نزوة.

- أول مرة أعرف إنك ست غبية، فيه نزوة تبقى مع واحدة زيك أمال البنات اللي مرميين في الشارع دول يبقوا إيه ؟

- انت عايز مني إيه؟

- بحبك يا أبية من أول يوم شفتك فيه في ندوة منال وانا بحبك وانا مش قادر افهم ليه نقعد نلف وندورحوالين بعض، أنا بحبك وانتي كمان بتحبيني، لازم نبوس بعض بعد شهور من العلاقة واقف قدامك بعدها أبص في الأرض واقولك أنا آسف هو كان فيلم عربي.

وجلست على الكنبة مجهدا جدا كأنك كنت تجري، ووجدت نفسي أجلس على ركبتي أمامك وآخذك في حضني وأهمس في أذنك قائلة:

- سامحني.

تجاوبت معي في العناق ثم خففنا العناق قليلا وسألته:

- إحنا فين؟

- دي شقتي.

- والشقة التانية راحت فين؟

- كانت شقة ماما، وأنا متخانق معاهم من تلت شهور فاشتريت الشقة دي وسيادتك عاملة مقموصة علشان كلمتك مرة بطريقة مش حلوة إيه هو أنا أراجوز دوري إني أبسطك .

- أمجد.

- نعم.

- انت بتشتغل إيه ؟

- لغاية دلوقتي ماتعرفيش؟ عبيطة! بشتغل دكتور في كلية العلوم في قسم الرياضيات.

- والله! انت دكتور في الجامعة؟ بس انت مش شبه الدكاترة.

- ضاحكاً قال : كرش ونضارة مش بقولك عبيطة.

ونسيت حقدي كله في لحظةٍ من قال إني قد حقدت عليه

وأخذته في أحضاني مرة أخرى وقبلنا بعضنا البعض قبلة طويلة جدًّا فيها اعتذار ولهفة وشوق، ووجدته يخلع عني جميع ملابسي ماعدا ورقة التوت، وهو كذلك، وبدأنا علاقة النصف التي دامت بعدها حوالي سنتين.

***

احترت من نفسي في هذ العلاقة، فأنا لم أشعر بالذنب ولو لدقيقة، بل كنت أشعر أني أفعل ما يجب أن يُفعل، كنت أقوم بكل ما كنت أعيبه

على أختى في الماضي من استخدامها لجسدها لتنال ما تريد، كنت أقدم جسدي من أجل رجل واحد وكنت أريد أن أظل بجواره ولكن لم أكن كأختي فلم أنجح في هذا..

كنت أحكي لصديقاتي نور وسهى ووردة، ولم أكن أخجل منهن، والغريب أن ثلاثتهن لم يحدثنني عن الله وغضبه، بل كنت ألمح في عيونهن لمعة، حتى نور المتزوجة من حبيبها كنت ألمح في عينيها بريق اللحظة الحلوة..

سهى التي كانت ملقبة بالشيخة في أول مرة غضبت وهددتني بغضب من الله إلا، أنها كفت بعد تلك المرة وظلت دائما تسمع وتضحك ..

أحببتك يا أمجد وأحبتك صديقاتي من خلالي، كم مرة قلت لك أحبك؟ ألف ألف مرة أم أكثر..

***

من الأشياء التي أشهد بها لأمجد أنه كان من أصحاب الذوق الرفيع في كل شيء، في ملابسه في منزله حتى في أسلوب معاملته. كان الذوق الرفيع في السلوك والحياة المادية طابعا مميزا له، انعكس هذا الذوق في منزله الجديد، الشيء الوحيد الشاذ في هذا الذوق الكنبة البرتقالية..

حاولت في اللقاء الثاني أن أعرف سبب خلافه مع أهله، لكنه رفض الإفصاح تماما وقال لي: شيئان لا تتحدثي عنهما أسباب خلافي مع أهلي والكنبة البرتقالية حتى نظل أحباء للأبد..

ولم أتحدث عنهما بعد ذلك، حتى حكى لي كل شيء في أحد الأيام بعد مرور عام على علاقتنا.

***

في حياة الرجل الشرقي ثلاثة أنواع من النساء: التي يحبها والتي يستخدمها والثالثة التي يتزوجها، ولن تنال واحدة من الثلاث مكان الأخرى أبدا..

اشتر اثنين والثالثة مجانًا، كما في إعلانات البضائع لتحفيز المشتري، كنت أعتقد أنني أعطيته الأولى والثانية فسيعطيني هو الثالثة ولكنه لم يحدث أبدا..

كان في حياته حبّ أول جارف بريء مفعم بالأحلام لم يتم وكانت صاحبته صاحبة الكنبة البرتقالية، ومحظية استخدمها وكانت أنا، أما الثالثة، المرأة التي يعلم عنها كل شيء ولا يعلم عنها في نفس الوقت شيئًا وهي من تزوجها و كانت فاطمة..

في إحدى تلك الليالي التي كنا نقضيها معا جاءني يومها بادي الألم والهم. كان يشعر بالوجع وفي تلك اللحظات يتحول الجنس إلى أسطورة، حتى جنسنا البريء كان في تلك الليلة أسطورة بعدها جلس في أحضاني على الأرض وأخذ يقص عليّ قصة صاحبة الكنبة البرتقالية..

كانت اختصارًا لكلمة الحب، هكذا حدثني عنها، تزاملا معا في كلية واحدة وكانت هي السبب في تفوقه وحصوله على المركز الأول، فلم تكن كافتيريا الجامعة، أو الحدائق المحيطة ملاذهما كما يفعل بقية العشاق، بل مدرجات الكلية فهي السبيل لتحقيق الحلم، ولكن لو كان تحقيق الأحلام بهذه البساطة ما انكسر قلب عاشق على حد قوله..

بعد التخرج والتعيين في الكلية ذهب إلى والديه ليفاتحهما في الأمر فلم يرفضا ولماذا يرفضان؟ العاشقان السابقان أبوه وأمه يفهمان في الحب ويقدرانه حق تقديره، ولكنهما كان رافضين للفكرة، فلقد كانت الفتاة بالنسبة لهما من أسرة فقيرة فأمه كانت من عائلة ثرية ذات نفوذ، صحيح رفضت عائلة أبيه هذا الحب في البداية لكن كان سبب الرفض هو الحفاظ على مال العائلة من التفرق، فمال العائلة يجب ألا يخرج بعيدا، فإذا تزوجت ابنة عمه من رجل آخر ألن يذهب مالها فيما بعد لأولاد رجل آخر من عائلة أخرى، ولكن نفوذ أسرة الأم والذي أفادهم بعد ذلك هو ما أكسبها تعاطفهم في النهاية.. مع أن حسابات الجد كانت مختلفة فقد كان ينتصر للحب فعلا..

تناسى أبوه وأمه عشقهما وتذكرا فقط مصالحهما، والحقيقة كانا من الذكاء الذي جعلهما لا يرفضان قصة الحب ولكن لا يجعلانها تتم..

قال له والده ما أجمل الحب وأعظمه وأرقه، ولكن إذا أردت أن تتزوج، فزوِّج نفسك فلن أساعدك ألست رجلًا؟

كانت صدمة غير عادية بالنسبة له فماذا يستطيع أن يفعل؟ فلقد رفضت والدته أن تعطيه شقتها التي لا تذهب إليها إلا مرات قليلة طول العام ليتزوج فيها حبيبته، تعاطف والد حبيبته معه لكن ماذا عساه يفعل له، فلن (تتزوجها بدون حضور والديك) ووالداه لن يأتيا إلا إذا أحضر الشقة. دائرة مفرغة يدور فيها واكتشف يومها أهمية المال هو الذي لم يحمل للمال هما في يوم ما، إذا نقص ماله يوما اتصل بأبيه فيعطيه ما يشاء حتى الكنبة البرتقالية حينما أعجبتها، وقالت له إنها تتمنى أن تكون أول قطعة في منزلهما فهي تحب الألوان البراقة اشتراها لها بمنتهى البساطة مع أنها كانت غالية الثمن فعلا وكانت جديدة في ذوقها، ولكن لا يهم فالمال متوفر..

ماذا يستطيع أن يفعل بمرتبه الجديد القليل الذي كان ينفق أضعافه في يوم واحد، وهل من الممكن أن تنتظر حتى يدخر أو يتصرف حتى يحصل على المكان وإن حدث كيف سيعيشان، وإذا كان هناك كثيرون مثله رواتبهم ضعيفة، وظروفهم سيئة بالنسبة له إلا أن وجود من يدعمهم حتى ولو كان معنويًّا يقويهم، أما هو فلا يجد دعمًا ماديًّا أو معنويًّا، ترك لوالديه المنزل وعاش فترة في إحدى الشقق المشتركة، ولكنه لم يحتمل الفقر وشِرَاكَهُ فكيف تحتمله هي؟

كانت مشكلة أمجد أنه كان ككل المرفّهين من البداية هشا، لم تكن لديه تلك الطاقة الموجودة عند متوسطي الحال؛ فالذي لم يتمرن من طفولته على تحمل قسوة الحياة لا يستطع تحملها وهو رجل..

قليل من الحرمان يصنع الرجال.

دموعها كانت تمزقه لكنه لم يكن متفرغا لدموعها قدر ما كان متفرغا لهمه، لمعاناته الجديدة، انتهت قصة الحب الرائعة تحت قدمي العملة الورقية..

من يومها أقفل على ذاته بأقفال ومفاتيح ،ولم يعد يُطْلِعُ الناس على وجيعته أو ما به، لم يشرك أحدا في أوقاته السعيدة أو التعيسة..

قرر أن يمارس لعبة الحرمان تلك وعلى طريقته ،أعاد العلاقات مع والديه كما كانت ظاهريًّا فقط أما باطنيًّا فلم يعودا ملاذه..

ظل يتعامل مع الناس من خلف الزجاج، يراهم ويرونه ولكن لا توجد بينهم المشاعر الدافئة، أصبح مجرد آلة للتعامل مع الناس يضحك ويبكي معهم كرد فعل لما يفعلونه لكن القلب غير مهتم بهم ..

حرم نفسه من التواصل مع الناس الذين حرموه مما كان يحب.

سامحكما الله يا أباه وأمه، لولا فعلتكما ما كنت تألمت ما كنت تعذبت، ولكان ابنكما سعيدًا..

***

بعدما عرفت سر الكنبة البرتقالية ، خفت منها ولم أعد أحبها، خفت من صاحبتها التي مازالت قابعة في قلبه ولكن كنت غبية فصاحبة الكنبة البرتقالية سوف تظل إلى الأبد ذكرى لن تتحقق، ولو

تحققت فسيكتشف بعدها أن ما بينهما قد ذبل وانتهى وأن كل ما يشعر به هو ناتج كلمة لو...

***

انتهى اعترافه وجلس في أحضاني يبكي، أنا من كانت تريد أن تذرف أنهارًا من الدموع لكن كبريائي منعني ..

طمأنته أنه سوف يلتقيها وأنهما سوف يكونان لبعضهما البعض وكل ما عساه أن يقال مع تأكيدي على أني مستعده لمساعدته..

كنت المرأة التي يستخدمها.. يفرغ فيها رجولته ومشاكله وهمومه، ويتركها ليبحث عن ذاته مع أخرى..

في الماضي كانت تلك المستخدمة يُدفع لها الثمن لقاء ما تفعله دون مواربة كانت العلاقة بينها وبين من يستخدمها نزيهة..

أما الآن فهي لا تكلف أكثر من كلمة حب وحنان وليد اللحظة..

***

الحب نوعان نوع تصنعه ونوع آخر هو هبة من عند الله لا يوجد في العمر إلا مرة واحدة، كان عشقي لأمجد من النوع الثاني، وكنت أحاول أن أصنع حبه لي فلقد عرفت أنه لم يكن يهواني وإن كان لا يستطيع الاستغناء عن حناني..

في محاولتي لصنع هذا الحب فعلت كل ما كنت أرفضه في أختي و في سهى و وردة حتى ما كنت أرفضه في نفسي.

على الرغم مما حدث ظللت على علاقتي به أحبه، وأعشقه أيما عشق، أحتمل إهانته وكلي أمل أن يصنع الحب المعجزة ولكن..

***

اختفى أمجد! محموله مغلق، تليفون منزله لا يرد، هو نفسه غير موجود بالمنزل، أحدثه عند والديه فلا أعثر عليه أبعث له برسائل على الموبايل دون جدوى، البريد الإلكتروني يعطيني نفس النتيجة، حتى الكلية في إجازة نهاية العام وهو في إجازة أيضا..

أهملت عملي و نفسي، أصبت بحالة من الجنون أين أنت ولماذا اختفيت، كان عقلي يقفز من فكرة مستحيلة لفكرة أشد استحالة..

كنت أرتمي في أحضان نور كل ليلة وأبكي، أين ذهبت يا أمجد، لاحظت أختي ما أنا فيه سألتني فأجبت أنها مشاكل في العمل، فأنا لم أحك لها يوما عن أمجد أو غيره؛ فمن يريد إفشاء سر فليذهب إلى أماني أختي..

لم أكن أنام وإن نمت فإنني أستيقظ كل ساعة لأنظر في التليفون هل اتصل أمجد؟

بعدما اكتمل الشهر، وكدت أصاب بالجنون، حدثني على المحمول من فرحتي لم أستطع الرد، أخذت أبكي وطرت إلى منزله فلقد أوحشني المنزل بكل تفاصيله حتى الكنبة البرتقالية أوحشتني..

أخذته في أحضاني بعناق حار وهجمت على أصابعه أقبلها فاصطدمت عيناي بدبلة ذهبية في يده اليمنى، كاد يتوقف قلبي نظرت له وسألته عنها فكان رده أنه خطب ابنة عمته فاطمة و.. لم أستمع إلى الباقي..

كل ما أتذكره عن هذا اليوم أنني لم أبك، تجمدت وقبلته في شفتيه قبلة طويلة وهنأته وتمنيت له حياة سعيدة وسط ذهوله، فعلى ما أعتقد كان قد جهز دفاعا طويلا عن نفسه وحججا و مبررات..

على باب المنزل سألته: فاطمة بنت عمتك هيا اللي كانت بتبصلك في الصورة مش كده؟

قال لي: هي..

مددت يدي في الحقيبة ووضعت مفتاح الشقة على إحدى الطاولات وأغلقت باب الشقة في هدوء.. قاطعنا بعضنا قطيعة طويلة جدا.

***

في علاقتي بأمجد جربت كل المشاعر الإنسانية، أصبحت خبيرة بكل الانفعالات السعيدة، والسيئة فلم يعد يوجد شعور إنساني يدهشني..

مع أمجد عرفت ماهو الفقد، عذبني هذا الشعور مدة طويلة، كنت أسير في الشوارع ليلًا ونهارًا عسى أن أقابله صدفة، كنت أريد أن أراه ولا يراني، لأراها معه، لأعرف من هي جيدا..

مضى عليّ الشتاء طويلا جدا أنا التي أحب الشتاء، فذكرياتنا فيه تعذبني، لياليا الطويلة معًا على الهاتف أفتقدها بشدة، كنت أضحك أمام الجميع

وأفتعل المرح وأنا فارغة من الداخل، كنت لا أشعر بأي شيء فعلا، أخذت روحي تذوي بشدة يوما بعد يوم، لم أعد أهتم بشيء أوبلا شيء حاولت أن أملأ وقتي بكل شيء يمكن فعله لعلي أنساه ولكني لم أنس..

أشد ما كان يعذبني أني كنت أعرفه جيدا، أعرف حنانه الدافق، رقته التي لا يخجل أن يظهرها، أعرف همساته، دفئه غزله، كل شيء فيه كنت أعلمه جيدا، كادت هذه المعرفة تقتلني..

حاولت في تلك الفترة أن أدخل في علاقة جديدة مع أي شخص فلم أستطع، كان يملأ عليّ حياتي بصورة مطلقة، كان غيابه يزيد من حدة الشوق واللهفة.

في إحدى الليالي كنت أبكي بين يدي نور الأمينة على دموعي، قالت لي وقد شعرت بعذابي (دافعي عن حبك) نبهتني تلك الكلمة إلى حقيقة لم أعها أبدا، أنني كنت دائما شخصية رد فعل لم أكن أبدا صانعة الحدث، بل كنت فقط جزءا من هذا الحدث، بي أو بدوني سوف يقع الفعل، فلماذا لم أُثْرْ يوم أن علمت بخبر فاطمة ؟لماذا لم أتهمه بالأنانية، وبأنه بلا ضمير؟ لماذا لم أقل له إنه لم يحبني يومًا، لماذا لم أشعره يوما بالعذاب، لماذا لم أفعل كما تفعل بقية النساء، توهم الرجل الذي تريده أنها من غيره سوف تموت وإذا ابتعد عنها قليلا يكتشف أنها توشك أن تصبح جثة فيتزوجها شفقة بها و يفعل هذا لوجه الله!

كنت غبية! كنت أريده بالحب بالحنان لا بالمكر والخطط والتدابير! سوف أدافع عن حبي ولن يذهب مني وملأني التصميم..

***

كانت أمسية شديدة الحرارة من أمسيات شهر أغسطس، خرجت من منزلي باحثة عن نسمة هواء طبيعية، كان الشارع أشد حرارة واختناقا من المنزل من كثرة البشر. بعد فترة عدت لمنزلي مرة أخرى وقررت أن التكييف نعمة من الله حتى لو كانت نسماته صناعية..

وأنا أتأهب للنوم حوالي الثانية بعد منتصف الليل دق محمولي دقتين على نغمة أمجد كذبت نفسي في البداية وأخذت أحملق في الشاشة بتعجب شديد، ثم إني تأكدت من الرقم أكثر من مرة، كان هو أمجد يسري حب عمري..

في نفس الوقت الذي قررت فيه أن أدافع عن حبي تذكَّرني أمجد، هل كانت رغبتي صادقة إلى هذا الحد حتى تصل إليه.. أحبك يا أمجد أحبك.

رددت عليه برنتين ثم اتصل بي على تليفون المنزل.

- وحشتيني
- كل دي غيبة عليه، هو أنا مش غالية عليك.
- دي كانت رغبتك وكان لازم أنفذها.
- هي كل حاجة أطلبها لازم تنفذها؟
- أبية لسه بتحبيني؟
- هو ده سبب عذابي حبك.

- عايز أشوفك ينفع بكره الصبح.
- بكره صعب عندي شغل كتير خليها كمان يومين.
- أنا محتاجلك قوي خديني في حضنك.
- تعالى يا حبيبي.

وفي هذا اليوم اكتشفت أننا لم نفترق، وكل فترة العذاب الماضية كانت لا شيء، كأنها كانت فترة إحماء لكي تعود الأشواق أكثر اشتعالا..

***

فاطمة بنت عمتي..

فاطمة خطيبتي..

والآن فاطمة مراتي..

وغدا أم أبنائي وبعد سوف تكون، وتكون.. أما أنا فمن كانت...

فاطمة رفيقة المساء، وليالي الشتاء، يدك في يدها، وعيناك في عينيها..

حينما رأيتها أول مرة نبهني عقلي أنها خطر، ولكنّ قلبي أسكته وناصرته، فصمتَ على مضض وانتظر لحظة الانتقام الكبرى حينما يعود لنا بالتفاصيل التي كنت أتغاضى وقلبي عنها ليقول أنتم المهملون أما أنا فلست المخطيء..

كلما جاءت سيرة فاطمة كان أمجد يقول عنها بنت عمتي (الهبلة) أو(دي ماخرجتش للدنيا خالص وماتعرفش عنها أي حاجة تتصوري لغاية دلوقتي عمرها ما اشترت لنفسها حاجة لوحدها لازم ماما معاها)

فاطمة ماذا أقول عنك ؟!

لا لن أكتبك فإذا كتبتك خلدتك، وأنا لا أريد ذلك ،سوف أكتب عنك كلمة واحدة

أكرهك.

***

مرت بيننا الأيام والليالي كما كانت في السابق، الجديد هو أن الحب زاد واللهفة زادت واكتشفت أن كل يوم يمر عليّ تزيد مكانته عندي ومكانتي عنده، اكتشفت أنه لم يحبني قط ولكنه لم يستغلني أيضا، كان هناك شيء يجذبه نحوي لم يعرف هو ما هذا الشيء ولم أعرفه أنا إلا فيما بعد..

عرفت في تلك الفترة كيف أنه كان يجب أن يرتبط بفاطمة التي تربى معها في منزل واحد، وكيف أنها استطاعت أن تكسب تعاطف الجميع ليفرضوها زوجة عليه، عرفت معه أن الإكراه على الرجل والمرأة سواء فقط اختر الوقت المناسب الذي يكون فيه المرء ضعيفًا وافعل ما شئت..

لم أكن سعيدة معه لأني أعلم أن في آخر النفق لا يوجد نور، فقط ظلام النهاية الأسود، كنت كلما أشعر باقتراب اللحظة أحاول الفرار، وكنت أطلب مساعدته، ولكني لم أفر، ولم يساعدني هو ففترة فراقنا السابقة جعلتنا أجبن من أن نفترق ثانية، لم نستطع أن نقوم بعملية البتر واخترنا العذاب للنهاية.

لم يترفق بي أمجد بل ظل معي حتى يوم زفافه الذي كان في بداية العام الجديد. لماذا لم يختف كما فعل في السابق؟ لماذا جرّعني كأس العذاب رشفة رشفة على مهل؟ لماذا لم يفاجئني بزواجه كما فاجأني بخطبته لماذا؟!

فكرت في الانتحار وعلمت لماذا ينتحر البشر، ليس من اليأس ولكن لأن الشعور السلبي الذي يشعرون به أكبر من قدرتهم على الاحتمال..

***

المؤلم في كونها زوجته، أنه حين يفتح عينيه في الصباح ستكون أول شيء يراه، حين يجوع سوف يقول لها أطعميني، حين يستحم سوف يلجأ إليها لتغسل له ظهره، وحين يؤلمه سوف يطلب منها تدليكه..

سوف يجلسان يشاهدان التلفزيون وينفعلان بنفس الموقف.. وحينما ينام تكون آخر رؤاه.

عزائي الوحيد أن جسد أمجد كان بالنسبة لي كصفحة بيضاء سودتها حتى الهوامش ..

كلما نظر لنفسه سوف يجدني منقوشة فوق جسده.. لم أترك لك مكانا يا فاطمة لتكتبي فوقه.

***

خفت المطارق التي كانت تهوي على رأسي، لم أعد أشعر بالبرودة أو السخونة، صرت أخف وزنًا حتى إني كنت أطير وأحلق بعيدًا عن أمجد، وكلما أحلق بعيدًا أرى أمجد صغيرًا بعيدًا حتى إن ملامحه اختفت ولم أعد أراه...

فتحت عيني ووجدت أبي، وأمي وأخي وأختي وميدو الصغير متحلقين حولي وأنا في فراشي والكل حزين وأمي وأختي دامعتي العينين، ولما فتحت عيني سمعت الحمد لله كثيرًا، وبعد قليل استعدت وعيي وعرفت أني كنت في فراشي مريضة محمومة، منذ ثلاثة أيام، وأنني من يوم نمت على فراشي الأرضي لم أفق من حماي إلا اليوم، وأن أخي هو من رفعني من على الأرض ووضعني على الفراش وأن الطبيب كان يائسًا لم يعرف لتلك الحمى سببًا ولكن أنا أعرف سببها ..

بعد حوالي أربعة أيام تحسنت أحوالي الصحية وعدت كما كنت في السابق أما ما كنت فيه من مرض فلأن روحي سئمت العذاب وقررت أن تتخلص مما هي فيه، ودخلت صراعًا مع أمجد، وكان لا بد من الكثير

من الجهد والألم لكي أتخلص منه، وها أنا تخلصت من أهم شيء في تلك العلاقة وهو الحنين.

دأب أمجد بعد زواجه بفترة قصيرة على أن يدق على الموبايل لكي يذكرني بنفسه وأنه معي ولم يتركني أبدًا، كان مايجذبه نحوي هو حبي له تعلقي به وإيماني بهذا الحب..

قال لي أحبك يا أبية، وقبلني في شفتي، وأخذني في أحضانه كرد فعل لما كنت أنا فيه؛ فلقد أحببته من أول مرة رأيته فيها وقد مسَّه حبي بالسحر، كنت أحبه كل الحب، كنت أشجعه على أن يفعل ما يريد، لم أتمنع، لم أرفض، حتى إنني لم أغضب.

كنت أَجْرَأ لأني أحبه. كان حبي يجذبه نحوي لكن لم يمزجه في جزيئاتي، بوجودي ينجذب.. برحيلي يتحرر ..

الآن انفكّ الطلسم وانتهى الحنين وبقي الحب ذكرى ..

نَحْنُ لَنْ نَنسَى..

لَكنّ طُولَ الجرْحِ يُغرِي بالتَّناسِي..

بَعدَ شِتاءٍ مُكْفَهِرِّ الوَجْهِ قَاسِ..

انتهى الحب بفصوله الأربعة وبقي الجرح، وأصبح الحب ذكرى بعيدة لن تمحى فالحب ذاكرة الإنسان ..

***

انتهت إجازتي السنوية الشتوية وارتديت في الصباح فستانًا زاهي الألوان براقًا ..

مازال الجو شتاء، والسماء مازالت رمادية، ومازلت أحب أمجد، ولكن أخيرًا استطعت أن أشرب قهوتي الفورية بدون قالب سكر.

تمت بحمدالله